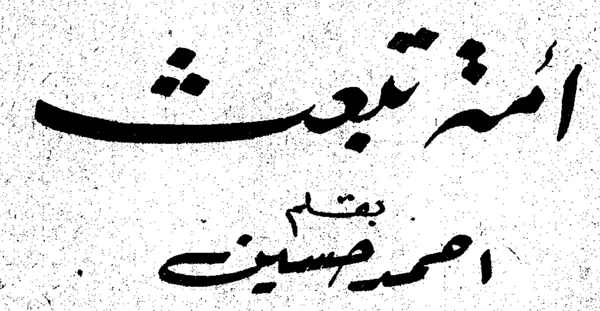




٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

بســم الله الرحمن الرحيم

ليس هناك ما يسعد الكاتب أكثر من أن يرى أن دعوته قد لقيت أذنا صاغية ونفسا واعية ، وان يحدث التجاوب بينه وبين قرائه فيشعر انه بما يكتب انما كان يعبر عما يجول بخواطرهم ويكشف عنه ... وعلى هذا الاساس كان اغتباطى كبيرا للارتياح الذى قوبلت به دعوتى للاتجاه نحو الشرق فى كتابى الاول « يقظة العملاق » لقد نددت بهذا التعلق الذى لا يزال مستمرا نحو الغرب ، فى الوقت الذى أصبحت فيه أوربا تقترب من نهايتها كقوة فعالة فى هذا العالم وبدأ ميزان القوى يميل من جديد صوب الشرق ، وأعنى بالشرق آسيا وشمال أفريقيا ودول الشرق الكبرى والصغرى : اليابان والصين والهند والافغان وايران وتركيا ومصر والبلاد العربية .

ان الايام لا تزيدنى الا ايمانا بأن الحياة البشرية هى صورة طبق الاصل من حياة الطبيعة كلها ... واذا كانت الطبيعة تتألف من دوائر تبدأ حيث تنتهى وتنتهى حيث تبدأ فالحضارة فى سيرها انما تتبع الشمس فى حركتها أو بالاحرى فى دورتها الظاهرية بالنسبة للارض . فالشمس تشرق من الشرق وتغرب من الغرب أو هكذا تبدو لنا على الاقل فالحضارة البشرية قد دارت هذه الدورة فبدأت الحضارة فى الشرق ثم لم تلبث أن انتقلت الى الغرب وحل الظلام محل الضياء فى الشرق . وكما تعود الشمس لتشرق من جديد من الشرق فكذلك تدل كل الدلائل على أن الحيوية والفتوة والحضارة يعود نورها ليبزغ من الشرق من جديد كما بدأ أول مرة من الهند والصين والبلاد العربية ومصر .

ولقد دعوت فى كتابى السابق أن تتجه مصر صوب هذا الشرق لتعينه فى نهضته ولتستعين به ، وضربت مثلا من الهند وصناعة القطن بها، وكيف حلت فى السوق المصرية محل انجلترا نفسها· فبعد أن كانت انجلترا هى أول عميل لمصر في شراء القطن المصرى ، أصبحت الهند في طريقها الى أن تكون العميلة الاولى ان لم تكن قد أصبحت الاولى بالفعل ·

وما ذلك الا لان انجلترا كانت أكبر منتجة للمنسوجات فى العالم لانها كانت تحتكر سوق الهند وآسيا كلها · أما اليوم وقد تحررت الهند وآسيا فقد أصبحت تنتج لنفسها، فازدهرت الصناعة القطنية بها في الوقت الذى توشك فيه مصانع انجلترا على الافلاس وانحدرت صناعة الغزل والنسيج بها بحيث لم تعد هى أخطر صناعات انجلترا كما كانت من قبل ·

وضربت مثلا على امكان استفادة مصر من نهضتها من هذا الشرق، فى موضوع السياحة والذى تكد مصر نفسها عبثا لجذب السياح الاوربيين والامريكان الى مصر بغير جدوى، وما ذلك الا لان أوربا مشغولة بنفسها ، وأمريكا مشغولة بملذاتها أو بما تعده من مشاريع لاشعال نيران الحرب العالمية ، فلن تظفر مصر من أوربا وأمريكا بما تطمع اليه من سياح، أما فى الشرق، أما فى آسيا حيث بدأت الملايين تظمأ للمعرفة والحركة والتطلع لمشاهدة هذا العالم حيث تمثل مصر لعشرات ومئات الملايين مكانا مقدسا أو مكانا أكثر تقدما ، فلو ان مصر بذلت بعض جهودها التى تبذلها فى أوربا وأمريكا للسياحة فى مصر ، فى الهند والصين وأندونيسيا والباكستان وايران والبلاد العربية ، اذن لتدفق على مصر عشرات بل ومئات الالوف من السياح الوافدين من الشرق نحو أمهم وشقيقتهم أو حليفتهم الطبيعية مصر ·

وعرضت فى آخر كتابى الى نهضة الصين الجبارة فى ظل ديمقراطيتها الجديدة المطعمة بالاساليب الاشتراكية وكيف تحولت من قارة تسودها الفوضى والاضطراب والقحط والاوبئة والفيضانات

والمخدرات والحروب والفتن، التى جعلت من الصين رمزا على الكآبة والبؤس والشقاء الانسانى الذى لا حد ولا نهاية • وكيف تحولت الصين فى أقل من عامين الى دولة عظمى موحدة الحكومة ، مستتبة الامن لا تعرف القحط أو الفوضى أو الاوبئة والطواعين ، بل خلت مدنها من المتسولين والعاهرات والذباب فى نفس الوقت • كيف صدرت لاول مرة فى تاريخها الطويل القمح والارز الى خارج حدودها وكيف حررت المرأة فارتفعت بمائتى مليون أنثى كانت تعامل معاملة أحط من العبيد أو الماشية الى درجة المساواة المطلقة مع الرجل فى سائر الحقوق والواجبات ، وكيف وزعت الارض على مائتى مليون فلاح فأصبحوا ملاكا لاول مرة فى تاريخ حياة الصين بعد أن كانوا أجراء أو بالاحرى عبيدا لدى أصحاب الارض وأمراء الاقطاع •

وأخيرا بل وأولا كيف تصدت الصين للجيوش الامريكية التى هددت حدودها وأوشكت أن تتوغل فى أرضها ثم طاردتها حتى كادت تقذف بها الى البحر لولا ان استعانت أمريكا بكل بحريتها وكل أسطولها الجوى وكل جيوشها وأسلحتها لتحول دون وقوع هذه الكارثة ، وكيف فشلت أمريكا بعد ذلك بكل جبروتها ان تتقدم بوصة واحدة الى الامام • وختمت صيحتى فى هذا الكتاب بوجوب المبادرة بالاعتراف بالصين الجديدة فمن الحمق تجاهل خمسمائة مليون من البشر بأى حجة من الحجج •

وكان لكل ذلك أثره فى كل من طالع الكتاب أو طالع مقدمته التى لخصت الغرض منه فى مجلة التحرير حيث نقلتها عنها أكثر من جريدة فى كل البلاد العربية •

وفى هذا الكتاب أتحدث عن الهند وعن رحلتى بها • وليس كالهند بلاد نستطيع أن نستفيد من نهضتها الحاضرة وتاريخها القديم والتحدث عن مشاكلها وعن الصدمة التى أصابها بها الاستعمار الانجليزى وعن طريقة خلاصها منه ، وعن جهودها التى تبذلها للخروج من ظلمات العصور الوسطى الى حياة الحرية والديمقراطية ، وعن

المشروعات التى تضعها لجعل المستقبل القريب آية عز وفخار لشعب الهند الحرة المستقلة ٠

ليس حديث الهند بأقل اثارة من الحديث عن الصين ، بل لعل الحديث عن الهند ينفعنا أكثر من الحديث عن الصين ، فالهند كانت وستبقى أكثر اتصالا وارتباطا بمصر ، ارتبطنا فى القديم٠٠٠ وارتبطنا فى الحديث ٠٠٠ بل ان مصر فقدت استقلالها على أثر فقدان الهند لهذا الاستقلال ، وأرادت انجلترا أن توطد امبراطوريتها فى الهند فاتخذت مصر قاعدة لذلك ومعبرا وممرا ٠٠ واليوم وقد تحررت الهند فقد أصبح تحرر مصر الكامل نتيجة لازمة لذلك ٠٠٠

فالهند، والحديث عن الهند، هوحديث عن مصر، ونهضة الهند نهضة لمصر ، وقوة الهند من قوة مصر ، وقوة مصر من قوة الهند ٠٠ فليس حديثى فى هذا الكتاب عن الهند ببعيد الصلة عما أرمى اليه من نهضة مصر ٠٠ واذا كانت ظروف رحلتى وسياق الحديث سيجرنى للتحدث عن بعض موضوعات ليستطرد منها الحديث استطرادا ٠٠ فان الهدف من وراء ذلك كله هو مصر ونهضة مصر وما الذى تريده مصر ٠

ان مجرد احاطة الشباب ببعض ما يجرى فى الهند وديانة الهند ومعتقدات الهند ليس الا ضرورة ثقافية لازمة لمصر فى نهضتها الحديثة التى يجب أن تتجه بكل قوتها نحو الشرق ، نحو الصين وأندونيسيا والباكستان والهند وايران والبلاد العربية وأول مراحل التعاون والتبادل هو التعريف وهو ما أخذت على عاتقى أن أساهم فيه بقدر استطاعتى ولعل فى حديثى الذى أسوقه فى هذا الكتاب عن الهند وما سبق لى أن كتبته فى يقظة العملاق عن أندونيسيا وبورما والصين ما يحفز عشرات ومئات من الشباب الطموحين والمغامرين على ارتياد هذه البلاد والافادة منها والتمكين لثقافة مصر وتجارة مصر وحضارة مصر بين ربوعها ولعله يحفز من هم أقدر منى من الكتاب والصحفيين على اصدار الكتب المطولة الحافلة بكل ما يزيد المصريين عرفانا بهذا

الشرق العتيد الذى انبثق منه النور فى القديم والذى يتبثق منه من جديد على رغم أوربا الاستعمارية وعلى رغم أمريكا المتعجرفة المتكبرة التى تتصور ان ليس فى الدنيا سوى روايات سينماتها وثلاجاتهـا وعجيج آلاتها وقنبلتها الذرية ، ناسية ان البشرية تنطوى على ما هو أروع من ذلك كله وهو هذا السر الالهى الكامن فى نفس الانسان هذا السر الذى يقوم عليه جوهر الوجود ، هذا السر يستطيع بغير آلات ومعدات أو قنابل ذرية أن يقول للشىء كن فيكون .. وليس سوى الشرق الذى حاول أن يجلى هذا السر والذى سيكمل فى مقبل الايام رسالته ، فيدل الانسان على أن أقوى ما فى هذا الكون انما يكمن فى ذات الانسان نفسه . وحسبنا هذا القدر ولنمض الآن فى استئناف رحلتنا .

على شاطىء البحر فى صباح يوم ١١ اغسطس سنة ١٩٥٣

احمد حسين

١١ / ٨ / ١٩٥٣

الفصل الأول
من رانجون إلى كلكتا

لم أكن أدرك تمام الادراك سر هذه السعادة التي كانت تملأ نفسى عندما بارحت الطائرة العملاقة مطار رانجون فى طريقها نحو كلكتا.. نحو الهند .

كان شعورى أشبه بشعور ذلك النهم الذى يقدم على وليمة فاخرة يحلم بها منذ أمد بعيد ، فتراه يتلمظ تلمظا ، ويزدرد لعابه من حين لآخر ، وتشع عيناه بلمعان غريب بينمـــا يخفـــق قلبه ، ويـدق دقات سريعة ، ويعمل خياله بسرعة البرق فى تصور شتى أصناف المأكولات الطيبة التى ستكون فى انتظاره ، فمن دجاج محمر ، الى أوز محشى ، الى أرز محمر، الى ديك رومى ، الى حلوى مشكلة الاصناف وفواكه صنوان وغير صنوان ، وكلما اقترب من مكان وليمته كلما ازدادت مشاعره حساسية وارهافا ...

ذلك كان شأنى ، ولا تحسبنى وقد وصفت لك حالة النهم ، أو الاقبال على وليمة ، انه قد سبقت لى هذه التجربة واننى قد وصفت لك مشاعرى عندما أقبل على الولائم ، فأنا رجل لا يعبأ كثيرا بالطعام ولو تركت وشأنى لكان نصيبى فيه أقل من القليل ، ولكننى أصف حالتى وأنا مقبل على زيارة الهند ، فلم أجد ما يمكننى أن أصوره بها ، سوى ما يمكن أن تكون عليه حالة شخص شره وهو يقبل على مائدة فاخرة .. ولا جدال اننى أحس فى نفسى نهما الى المعرفة ،

وللمعرفة طريقان ـ طريق المطالعة، وطريق المشاهدة ، وكثيرا ما حرمتني ظروف حياتي من مطالعة كل ما أريد ، فالكفاح السياسي والاشتغال بالصحافة ، والقاء الخطب والتجوال في أنحاء البلاد ، كل ذلك لا يدع للانسان فرصة كبيرة للمطالعة ، وكانت فرصتي الوحيدة لمطالعة بعض الكتب هي في السجن أو الاعتقال ، ولكن هذه المطالعة نفسها كانت تكشف لي عن مدى نقص ثقافتي وجهلي بشئون هذه الدنيا ، فكان ذلك يدفعني الى الرحلة والسفر والتجوال ما استطعت الى ذلك سبيلا ، لاحصل بسرعة على بعض المعلومات والمعارف ، التي تساعدني على الاستفادة مما أطالع أو أقرأ ..

كانت هذه الرغبة الخفية في نفسي، هي التي تدفعني لاعتبار السفر الى الخارج ، بعض ميادين كفاحي العام ... فطالما سافرت الى انجلترا وفرنسا وأمريكا والبلاد العربية بفكرة الدعاية للقضية المصرية ، ولقد بذلت في هذا السبيل جهودا تصورها اخواني في وقتها انها شيئا جديرا بالذكر والتنويه ، في الوقت الذي كنت أعتبرها شيئا تافها يصلح أن يكون خير عنوان على الفشل والاخفاق ، وكثيرا ما كان يساورني شعور بالخجل لاحساسي انني أخدع اخواني وأصدقائي ومواطني الذين مدوني بالمال للقيام بهذه الرحلات عندما أصور لهم ان قضية البلاد تفيد من هذه الرحلات .

وقد تملكني هذا الشعور أكثر ما تملكني ابان رحلة في الولايات المتحدة حيث تحمس الرأى العام لي في مصر ، وتبنت جريدة الاهرام اكتتابا عاما لمساعدتي ، وقمت ببعض جهود متواضعة ، انتهيت منها الى عدم جدوى اتجاهنا صوب أمريكا وتصورنا ان الدعاية لقضيتنا في أمريكا لا يمكن أن تقدمنا خطوة واحدة نحو الامام. ستةأشهر كاملة قضيتها في الولايات المتحدة ، أقنعتني بفشل الغرض الذى قصدت اليه من ذهابي اليها ، وهو الاهابة بالامريكان الاحرار لمساعدة مصر على نيل حريتها ، وقد وصلت الى هذا الاقتناع في الوقت الذى كانوا يزفون لي بشائر التحية والتكريم في مصر ، بزعم انني أديت للوطن

خدمة تذكر .. وكان ذلك يهز نفسى ويجعلنى أشعر بوخز الضمير والخوف من أن أكون خادعا لمواطنى .

وكان يخففهذا الشعور فى نفسى أمران. الامر الاول هو مبادرتى باعلان هذه الحقيقة على الناس ، واننى لم ألق فى الولايات المتحدة سوى الخيبةوالفشل، فكان هذا التصريح يقع من الناس موقعالدهشة ولكنهم لا يلبثون ان يفسروه على أنه مظهر من مظاهر التواضع وانكار الذات ، فيبالغون فى تحيتى أكثر وأكثر فأعود الى موقفى الاول — موقف الشعور بالقلق والخوف من أن أكون مخادعا مغررا بالناس .. فلم يبق أمامى سوى العامل الثانى الذى أخفف به عن نفسى بعض الشىء ، وهو اننى قد أفدت من هذه الرحلة فائدة شخصية ، وهـو زيادة معارفى ، واتساع دائرة تجاربى، واستطاعتى على ضوء ماحصلت عليه من ثقافة جديدة أن أكون أكثر قدرة على الحكم على الاشياء ، ولما كنت أعتبر نفسى دائما خادما من خدام الشعب ، وقطعت على نفسى العهد ان أظل أمينا على خدمة الشعب، فقدكنت أرىانه عنصر لايخلو من الخير والفائدة ، ان يكون أحد خدام الشعب مثقفا ثقافة عامةليجعله ذلك أكثر اقتدارا على خدمة الشعب .

الثقافة العامة وضرورتها

والحق انه ليس هناك ما يزيد فى قدرة أى مواطن ، وبالتالى فى قدرة الوطن كله أكثر من أن يستزيد ما استطاع الى ذلك سبيلا من الثقافة ، وان تتفشى الثقافة وحب التثقف بين صفوف المواطنين . ان التاجر لا يمكن أن ينجح فى تجارته الا اذا كل ملما بكل ما يتصل بتجارته ، عارفا بكل العناصر والظروف التى تحيط بالمورد ، الـذى يستورد منه بضاعته ، والمصرف الذى يصرف فيـه تجـارته ، أو بالاحـرى جمهـور مستهلكيه وكل ما يتصـل بهـم — ان التـاجر النـاجح يجب أن تبـدأ ثقافتـه بالجغرافيـا الاقتصادية ومعارف ليس أهمها علم المالية والحساب .

وليس أدل على ذلك من أن المؤسسات التجارية فى الولايات المتحدة فى أمريكا ، تتخذ من بين مديريها ومستشاريها من هو متخصص فى هذه الفروع المختلفة . فالتاجر الذى يريد أن ينمو وان ينجح لابد له من الالمام بطرف من كل هذه العلوم والمعارف .

واذا كان ذلك ضروريا للتاجر ، فهو أكثر ضرورة لباقى الافراد الذين يريدون النجاح فى عملهم ، فالمحامى والقاضى ورجل البوليس والصحافى ، والسياسى والمهندس والطبيب والموظف والفلاح والعامل كل هؤلاء لا يستطيعون أن يشبوا عن الطوق وأن يبرزوا فى معركة الحياة ، اذا اقتصرت معلوماتهم ومعارفهم على القدر اللازم لمزاولة مهنتهم فى أضيق الحدود ، بل لابد لهم من الثقافة ، والثقافة العامة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

واذا كانت الثقافة لازمة للفرد للنجاح واضطراد التفوق فانهـــا للجماعات والامم أشد لزوما للمحافظة على حياتها فضلا عن تطـورها فى معارج الرقى والكمال .

ازدهار الثقافة الاسلامية

ان تاريخ النهضات وازدهار الحضارات ، رهن بمستوى الثقافة العامة فى شعب من الشعوب ، ولست أريد أن أستطرد فى هـــذا الموضوع طويلا ، والا لاحتجت لمجلد ضخم لمجرد سرد لبعض الامثلة بالتفصيل .. وحسبى أن أقول أن الشرق الاسلامى بأكمله بلغ أوج الحضارة ، عندما لم يتصور ، مع قرب عهده بأيام الرسول وخلفائه الراشدين من بعده ، وشدة ايمانه بالاسلام والقرآن والحديث والسنة عن الاغتراف من منهل العلوم والفلسفة والحضارات التى سبقته . فرأينا علوم الاغريق وفلسفة الاغريق تترجم الى العربية ، وترجمت كذلك كتب من الفرس والهند وهم أصحاب الحضارات السابقة على الحضارة الاسلامية ، ومع ازدياد الثقافة ، يزداد حظ المجتمع من القوة والمنعة والحضارة .

كان الساكن فى بغداد يعرف الكثير من شئون العالم ، كان يعرف ماذا فى الهند ، وماذا فى ايران وماذا كان فيهما فى سالف العصر والاوان ، وماذا كان فى مصر ، وماذا كان فى الاغريق ، فلا عجب ان كانت بغداد عاصمة الدنيا لانها تعرف كل شىء عن الدنيا ، ولم يكن لها فى ذلك شريك فى العالمين ، ولمعت فى سماء العالم الاسلامى فى هذه الحقبة، هذه النجوم اللامعة من العلماء والرواد والفلاسـفة ، والذين تتلمذت عليهم أوربا فى عهد النهضة ، وعلى أيديهم بدأت أول خطواتها فى معارج الرقى والكمال ٠

تدهور الثقافة الشرقية

هذا هو الجانب الزاهر من الثقافة الاسلامية وفى الجانب الآخر نرى العالم الاسلامى بل والشرق كله قد أصبح مهيض الجناح ٠٠٠ متأخرا ، متخلفا ، فريسة لكل ناهب ، وضحية لكل مغامر ٠ وهذه المرحلة من حياة العالم الاسلامى والشرقى هى الفترة التى أغلق فيهـا مصباح عقله ، وكفر بالعلوم والفلسفة ، وتصور أنه يستغنى بقرآنه أو انجيله أو«فيداه»(١) عن كل ما فى الدنيا من علوم ومعارف ٠٠٠ وانطوى الاسلام والشرق على نفسه ، وعاش فى أوهامه وخيالاته ، فتطورت الدنيا من حوله وهو جاهل تائه ٠٠ نهضت أوربا تجـدد بنيانها ، وتخترع أسلحة جديدة ، وتطوف حول العالم وتـكتشف الدنيا الجديدة ، والشرق غارق فى غفلة ملكوته وسلطانه القـديم يتصور أنه هو فى الدنيا وان ليس وراء سـلاطينه سلاطين ، ولا وراء أسلحته أسلحة ، ولا وراء علومه علوم ٠

كان الخليفة العباسى فى بغداد قد أصبح شبحا من الاشباح ، لا يكاد يملك خبزه اليومى الا بشق النفس ومع ذلك فقد كان يرتدى العمامة والطيلسان ٠٠٠ عمامة الخلافة وطيلسان الملك الذى يجعل منه سلطان السلاطين الذى تدين له الدنيا كلها بالولاء أو الخوف ٠

---

(١) الفيدا اقدم كتب الهند المقدسة

أولا يجلس على عرش عمر فاتح العالمين ، وعلى عرش الامويين والعباسيين ، عرش هارون الرشيد والمأمون .

واكتشفت أوربا قوة البخار، وقوة الكهرباء وبدأ عصر الآلة، والشرق يغط فى سباته العميق مستمتعا بأحلام الماضى وأمجاد الماضى، مستسلما لما صار اليه من جهل وفقر ومرض وفتن وويلات على زعم ان نهاية العالم قد قربت ، وان آلامه سوف تنتهى فى القريب العاجل بقيام الساعة ونصب الميزان .

وصحا الشرق من غفلته بعد فوات الوقت ... صحا الشرق وأدرك ان فى الدنيا علوما غير هذه العلوم التى بين يديه والتى تصور انها جالبة السعادة فى الدارين ، صحا الشرق وأدرك انه قد أصبح فى الدنيا أسلحة غير أسلحته ، وعقولا أقوى من عقوله ، وهمما أعظم من همه ، وان البشرية فى سيرها الزاحف الى الامام دائما قد قطعت شوطا كبيرا فى معارج التطور والحضارة ، وأنه قد تخلف عنها تخلفا مزريا ....

ولكن هذا الاكتشاف قد جاء بعد فوات الوقت ، بعد ان سلب الاستقلال والحرية فأصبح أسير الغرب ، ، أسير أوربا التى عملت ما وسعها الجهد لابقاء هذا الشرق فى ظلامه القديم ، فحسنت له المضى فى غفلته ، موهمة اياه بكل الطرق والوسائل ان ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وان هذا الوضع الجديد هو مشيئة القدر التى كتبت على الشرقيين اللعنة الى الابد ، ونفحت الغربيين بكل المجد والقوة والفتوة . وازدرد الشرق هذه الاكذوبة العريضة ومضى فى طريقه مستسلما يائسا يستعجل قيام الساعة والنفخ فى الصور ونصب الميزان .

ولم يكن ذلك كله الا نتيجة فقدان الثقافة العامة ومعرفة ما يحدث فى العالمين .

إزدهار الثقافة الاوربية

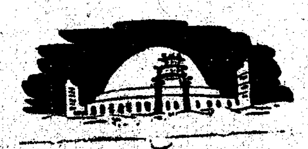
وكما فعل العرب والمسلمون فى قديم الزمان ليوطدوا ملكهم وليمكنوا لحضارتهم ، عندما جابوا البلاد من مشرق الدنيا لمغربها بحثا خلف العلم والمعرفة ، والتعرف على أحوال العباد ٠ كذلك فعل الانجليز والفرنسيون والالمان والبلجيك والاسبان والبرتغال والهولنديون وكل هذه الشعوب الاوربية المستعمرة التى غلبت الشرق على أمره ٠٠٠٠ لقد انطلق فريق منهم يبحثون عن ذخائر الشرق فى العلوم والمعارف والادب والثقافة والفلسفة وينقلون كل ذلك الى لغاتهم واصلين حاضرهم بهذا الماضى العتيد ، فانتقلت كنوز المعرفة كلها الى اللغات الاوربية دون اللغات الشرقية التى كتبت بها هذه الكتب فى بادىء الامر ٠٠ وأصبحت مكاتب أوربا لا مكاتب الشرق هى التى تغص بأمهات الكتب العربيةوالهندية والفارسية، وبدأ الجغرافيون يحيطون بما كتبه الادريسى والمسعودى والبيرونى ، والمؤرخون يواصلون ما بدأ به الطبرى وابن الاثير والمقريزى ، والرحالة الجوابون يسيرون على آثار ابن بطوطه وابن جبير ، والاطباء والمهندسون والرياضيون والفلكيون والفلاسفة ، كل هؤلاء قد استناروا بهذه الذخيرة الشرقية وأغنوا بحر الثقافة الاوربية الحديثة بهذه السيول العارمة من المعرفة الشرقية ٠ وعندما استيقظ الشرقيون من جديد وأرادو ان يعرفوا شيئا عن أنفسهم ، عن تاريخهم ، عن حقيقتهم ، عن دينهم ، عن حضارتهم ٠٠٠ التمسوا ذلك كله من يد أعدائهم وغزاتهم ومستعمريهم، وبدأ الشرق نهضته الجديدة، عندما بدأ يسترد الثقة بنفسه ، بما وقف عليه من علوم وحقائق تلقاها عن الغرب وهى تصور له مجده القديم وعظمته وحضارته ٠٠٠

انى لاذكر شخصيا ان من أروع ما طالعت هو كتاب رحلات ابن بطوطة ، والفضل فى الابقاء على هذا الاثر للاوروبيين الذين حفظوا هذه النسخة حتى وصلت الينا ، ولكتاب الطبرى فى التاريخ وكيفية وصوله الى أيدينا قصة من أعجب القصص ٠ فقد طاف

مستشرق ألماني الهند كلها بحثا خلف أحد أجزاء هذا الكتاب .. بل ان كتاب سيرة ابن هشام نفسه وهو اكمل كتاب فى سيرة سيدنا محمد قد حفظه لنا وجلاه الاوربيون وعلماؤهم . وثمة كتب عن مفاتيح كنوز السنة المحمدية .. بل دائرة معارف بأكملها عن الحضارة الاسلامية .. مئات وألوف من الكتب العربية حفظها لنا علماء أوربا وأعادوها لنا لنطالعها ، فنبدأ بها نهضتنا الجديدة ... ومثل ذلك حدث فى الهند وفى ايران وفى الصين وفى شعوب آسيا .

وبهذا الاسلوب حكمت أوربا المتعلمة المثقفة ، الشرق الجاهل الغافل ... لم يقل الاوربيون ماذا نفيد من مطالعة الكتب الهندية القديمة وقد حكمنا الهند ولو كان فى كتابها خيرا لما تدهورت أو لما حكمناها بالحديد والنار .. لم يقل الاوربى المسيحى المتعصب ، ماذا عساى أستفيد من دراسة الديانة الهندية أو البوذية وهى كلها أوضاع بدائية ساذجة ... بل لقد نهد الاوربيون المسيحيون لكل هذه الاديان يترجمون كتبها ويشرحونها ويدرسونها ايمانا منهم برسالة المعرفة والثقافة وانها الغاية النهائية من هذه الحياة كلها .

وعندما بدأ الشرق ينهل من هذه الثقافة .. بدأت يقظته من جديد وكلما مضى الشرق فى الاغتراف من الثقافة ، كلما ازداد قوة وحرية وانطلاقا فى معارج الكمال . ولذلك فقد آمنت منذ عهد مبكر بحاجتى الشخصية للثقافة العامة وحاجة بلادى للثقافة العامة .. ومن هنا كانت كل فرصة تتاح لى للاستزادة من هذه الثقافة كانت تهدىء نفسى من حيث اقناعها اننى أقوم بخدمة عامة . وهكذا اندمجت رغبتى الخاصة فى حب المعرفة ، برغبتى فى أن تكون كل حياتى مكرسة فى سبيل الخدمة العامة . وعلى هذا الاساس انتهزت كل فرصة أتيحت لى للسفر ، وسوف أظل أنتهزها ما استطعت الى ذلك سبيلا .



الهند ذلك العالم

ولعل هذا الشعور هو الذى كان يملأ نفسى وأنا قادم على الهند فيغمرنى بهذه السعادة التى حدثتك عنها ، ويجعلنى فى صورة النهم الذى يقبل على وليمة فاخرة طال انتظارها ··· فقد كنت على ثقة ان هذه الزيارة للهند سوف تزيد من ثقافتى العامة ، فى التاريخ وفى الجغرافيا وفى السياسة وفى الدين والفلسفة ، ولقد سمعت فيما سمعت أن تاجور شاعر الهند العظيم قال انه لا يجب أن يعد نفسه مثقفا من لم يمض فى الهند ثلاثة شهور على الاقل ·

فمن لم يزر الهند اطلاقا يجب أن يكون أبعد ما يكون عن الثقافة ، وكنت أشعر والطائرة تخترق بى الفضاء ، مقتربة بى من حدود الهند ساعة بعد أخرى ، بل ولحظة بعد لحظة ، اننى عما قريب سأخرج من دائرة غير المثقفين الى دائرة المثقفين ، فسوف أرى الهند واجوس خلالها · حقا انه لم يكن فى برنامجى أن أقضى فى الهند ثلاثة شهور، وليس سوى بضعةاسابيع لا تتجاوز الثلاثة ماكان محددالى لتمضيته فى الهند ، ولكن تاجور عند ما قال قولته لم يضع فى حسابه من غير شك التطور الآلى الحديث، وكيف اصبحت الطائرة تطوى بك فى بضع ساعات من أرض الهند ما كان يحتاج منذ عشرين عاماالى بضعة ايام فى قطارات السكك الحديدية ··· وان الراديو والاذاعة والسينما والصحافة كل هذه قد أصبحت وسائل تمكن الانسان من الاحاطة بالبيئة التى يحل بها فى وقت أقصر بكثير مما كان يستلزمه ذلك فى الماضى · واذن فباستطاعتى ان اجعل الزيارة لمدة ثلاثة اسابيع تحل محل الثلاثة اشهر لاعطائى فكرة عن الهند وما يتصل بتاريخها وحاضرها ومستقبلها ودينها وفلسفتها ، ترفع عنى سمعة غير المثقف فى نظر تاجور ، وخاصة اذا اضفت الى ذلك ما انتويته واعتزمته عليه من ان اجعل دورى اثناء اقامتى فى الهند هو دور آلة التصوير السينمائية حيث تلتقط المناظر وتختزنها ، على ان يكون التظهير والتحميض والطبع والتعليق والترتيب من شأن عمليات اخرى

تتم فيما بعد وقد تستغرق وقتا اطول بكثير جدا من وقت التصوير وهذا ما عولت ان تكون عليه زيارتى فى الهند فأنظر بملء عينى ، واسمع بكل آذانى ، واعى بكل عقلى ، ثم احمل ذلك كله معى الى مصر حيث اعمل فى سعة من الوقت على تفهم هذا الذى رأيت ، وتفسير هذا الذى سمعت ، وترتيب هذه المعلومات التى حصلت عليها ، كنت اعود من بورما محملا بحقيبة ضخمة ممتلئة بالكتب والنشرات والمجلات عن بورما واندونيسيا والصين ، وكنت معتزما ان اعود بحقيبة مماثلة او اكثر عن الهند لاكمل عن طريق المطالعة ما فاتنى عن طريق المشاهدة بعد ان تكون المشاهدة قد هيأت الطريق لفهم المطالعة .. وهذا هو ما حدث بالذات . فما كنت اجرأ ان اقدم لك هذا الكتاب عن رحلتى فى الهند بدون ان اطالع عشرات الكتب التى وضعت لى النقط على الحروف بحيث نهمت ما كان فى حاجة الى توضيح ... واستكملت ما كان يشوبه بعض النقص .

كل ذلك كان يجول فى خاطرى سلفا وأنا جالس فى الطائرة أهدىء نفسى التى كانت تستقل هذه الثلاثة أسابيع التى انتويت قضاءها فى الهند .

برنامج الرحلة

ورسمت لنفسى برنامجا (كروكيا) لزيارة الهند . لقد مررت عبر مدينة بومباى أهم مدن الهند على الاطلاق وسوف أعود اليها مرة أخرى فى طريقى الى مصر . ومدينة بومباى تقع فى غرب الهند ، فرؤيتها تعطى صورة عن غرب هذه القارة والشوط العظيم الذى قطعته الهند فى معارج الحضارة والقوة ، وها أنذا فى طريقى الى كلكتا أعظم مدن الهند من حيث كثرة السكان ، ويجب أن أستغل اقامتى فى كلكتا للوقوف على نهضة الهند الصناعية بزيارة بعض الصناعات الجديدة ، والوقوف على تاريخ الهند الحديثة تاريخ الاستعمار الانجليزى الذى بدأ من كلكتا ، حيث بدأت شركة الهند الشرقية زحفها ، وتحولت من شركة تجارية الى دولة محاربة لم تلبث أن سيطرت على الهند ،

كلها ، وحولتها الى أغلى درة فى تاج الامبراطورية البريطانية. وقد تم ذلك كله فى كلكتا حيث نودى بالملكة فيكتوريا امبراطورة على الهند.
ولا تبعد كثيرا عن كلكتا ، جبال الهملايا حيث تقع قمة افرست أعلى قمة فى العالم والتى لم تستطع بالرغم من ارتفاعها الشاهق أن تعزل الهند عن قلب آسيا النابض وعن بقية بلاد العالم فى أى عصر من عصور التاريخ، هذه العزلة التى فرضها الاستعمار الانجليزى على الهند فيما بعد ، ليجعل منها بلدا يرتبط بالجزر البريطانية التى تبعد عنها عشرة آلاف ميل بأكثر مما يرتبط بالصين وايران التى تتاخمها مباشرة .

ووضعت فى برنامجى بعد أن أفرغ من زيارة كلكتا واستيعاب ما استطيع استيعابه من تاريخها القديم والحديث ، واوضاعها الحاضرة، ان أزور مدينة بنارس ، مدينة الهند المقدسة . فلن تستطيع ان تفهم الهند ما لم تفهم ديانتها ... ليس هناك شىء اسمه الهند كشعب أو كوحدة جغرافية . الهند مجموعة شعوب لمجموعة أجناس ومجموعة وحدات جغرافية ... الهند مجموعة لغات ولهجات وأديان وأمزجة ، وليس هناك ما يوحد هذه الهند كلها ويجعل منها وحدة واحدة سوى هذا الذى يسمى «الديانة الهندية» .. وما ادراك ما الديانة الهندية؟ ليس هنا مجال الحديث عنها فسوف أفرد لذلك فصلا خاصا بها وربما عدة فصول ، وحسبى أن أقرر هنا ان الديانة الهندية صبغة تصبغ كل من تظله هذه القارة الهندية ، وأيا كان جنسه وأيا كانت لغته وأيا كان أصله ... الديانة الهندية هى التفسير لكل ما تحتاج لتفسيره من الغاز تتصل بالهند . اذا رأيت الهند تبلغ أوج عظمتها ، فالديانة الهندية تعطيك التفسير لذلك .. واذا رأيت الهند كما كان شأنها فى ظل الاستعمار الانجليزى تتردى فى حمأة الذل والاستكانة ، فالديانة الهندية ، تفسر لك ذلك كله ... اذا رأيت فى الهند أشخاصا يهزون الدنيا هزا كغاندى فى العصر الحديث وبوذا فى القديم.. ورأيت فيها أشخاصا هم عنوان

ما يمكن ان تتدهور اليه النفس البشرية ماديا أو معنويا فمفتاح ذلك كله ستجده في الديانة الهندية :..

فالديانة الهندية ودراستها هي ضرورة لازمة لكل من يريد أن يدرس الهند لمن يريد أن يعرف شيئا عن الهند .. لمن يريد أن يتصور أنه ازداد ثقافة بعد زيارته الهند .. وليس سوى بنارس البلد الذى تستطيع ان تدرس فيه ديانة الهند .

ويحدثوننا عن دور الاسلام فى الهند ، وما كان عليه اباطرة الهند من المغول المسلمين من مجد وسلطان ومدنية وحضارة ، وانه لا غنى لمن يريد ان يعرف سبب هذا العداء الغريزى بين المسلمين والهندوس والذى اخذ صورة هذا الانقسام الى الهند والباكستان، الا ان يقف على تاريخ الحكم الاسلامى فى الهند ، وليس سوى الاثار ما تستطيع ان تريك فى لحظة واحدة ما يغنيك عن قراءة المجلدات الطوال .. وقيل ان فى مدينة (أجرا) من الاثار الاسلامية ما ينطق بما وصل اليه الحكم الاسلامى فى الهند من درجة رفيعة ، وان ذلك يتجلى فى مقبرة (التاج محل) ، التى بناها الامبراطور (شاه جيهان) لزوجته وحبيبته (ممتاز محل) . وقلعة اجرا التى انشأها «اكبر» اعظم اباطرة المغول المسلمين فى الهند على الاطـــلاق . ولذلك فقد جعلت من برنامجى ضرورة زيارة مدينة أجرا الاثرية .

ويتصل بدراسة الحكم الاسلامى فى الهند وآثاره ، كما يتصل بحاضرها ومستقبلها زيارة العاصمة دلهى الجديدة حيث مقر حكومة الاتحاد الهندى ، وحيث اتخذها الانجليز من قبل عاصمة لهم عندما تصوروا ان الامر قد استتب لهم نهائيا وانهم يجب أن يحكموا الهند من المكان الذى حكمها منه أباطرة الهند من قبل ، فان مدينة دلهى الجديدة تقوم فى موضع قامت عليه مدينة دلهى فى عصور مختلفة من التاريخ ، ضاربة فى عصور متوغلة فى القدم .

وفى نيو دلهى عاصمة الاتحاد سيكون بقدرتى ان ادرس كل ما

يتصل ببرامج الهند الانشائية للمستقبل ، كل ما يتصل بسياستها وخططها وامكانياتها وحيويتها .

وثمة مركز آخر من مراكز الهند كان الى وقت قريب جدا، أى حتى سنة ١٩٤٨ يعد من مدن الهند التى يشار اليها بالبنان وهى مدينة (كراتشى)، وقد تحولت كراتشى اليوم الى عاصمة دولة جديدة هى «دولة الباكستان » ومع ذلك فالباكستان حتى الامس القريب كانت من مدن الهند ، ودراسة عاصمة الباكستان مما يساعدنا على استكمال عناصر الدراسة للهند . وعلى هذا الاساس وضعت برنامجى فأصبح يتألف من الخط التالى . بومباى — كلكتا — بنارس — أجرا — نيو دلهى — كراتشى .

حقا ليست هذه هى كل مراكز الهند الحساسة ، فهناك الجنوب بأكمله ... جنوب الهند وهو ما يتمتع بطابع خاص ولغات خاصة حتى ليظن ان الجنس الغالب عليه هو الجنس « الدرافيدى » بخلاف الشمال الذى كان يسود فيه العنصر الآرى ، ولعل مدراس من المراكز الكبرى التى لابد من زيارتها لاستنشاق عبير الجنوب .. وهناك الوسط ، وسط الهند — وهناك المراكز الصناعية الكبرى الجديدة حيث يصنع الحديد والفولاذ وقاطرات السكك الحديدية — ولا سبيل لقياس الهند الحديثة الا برؤية هذه المناظر الرائعة ، منظر القاطرة الفولاذية المصنوعة بأيد هندية لتحل محل القاطرة الانجليزية التى استعبدت البلاد مائة وخمسين عاما . ومنظر الطائـرة والسـيارة والدراجة البخارية ، التى صنعت كلها فى الهند . ولكن كان من المستحيل على أن أذهب الى كل مكان ، فالهند قارة ضخمة ، فاعتزمت أن أكمل ما ينقص برنامجى من زيارة هذه البلاد والمراكز برؤية الافلام السينمائية والمطالعة وسؤال الخبراء والمختصين .

وهكذا أقبلت على الهند ببرنامج مدروس ومحدد قدر الطاقـة ، للاحاطة فى اقصر وقت ، بأكثر نصيب ممكن من الثقافة العامة عن الهند

احساس خفى

وقد بقى لاكمل لك مشاعرى وأنا مقبل على الهند ان أشير الى هذا الاحساس الخفى الذى كان يراودنى ... الهند ؟ لقد استطاعت انجلترا خلال مائة وخمسين عاما ، أن تهبط بهذه القارة بحيث تجعل لا قيمة لها ولا خطر فى حياة العالم ، فلم تكن خطرا على أحد ، ولم تكن تهدد أحدا ، حقا لقد كانت انجلترا تستعمل الهند كمستودع تستمد منه الجنود لحكم باقى مستعمراتها وللسيطرة على العالمين ، ولكن الهنود فى ذلك لم يكونوا سوى آلة مسخرة لا شأن لها فيما تفعل . أما الآن وقد تحررت الهند من عقالها ، الآن وقد تحـــول ثلاثمائة وخمسين مليونا من البشر من حالة العبودية المطلقة الى حالة الحرية الكاملة يرسمون أهدافهم لانفسهم ، وينتجون وفق مشيئتهـــم ، ويطمحون بأبصارهم الى حيث يطوح بهم الهوى والخيال .

اليوم ، والهند تتسلح ، وتصنع الطائرات والدبابات والمدافع

اليوم ، والهند تنشىء اسطولا تصنعه بأيديها وفى مصانعها.. وتعمل ليلا ونهارا على نشر التعليم والقضاء على المرض والجهل والفقر بين صفوف هذه المئات من الملايين وهى تعمل ..

اليوم ، والهند تخرج من عزلتها التى فرضها عليها الانجليزوتتحول الى قوة يحسب حسابها فى شئون العالم أو فى شئون آسيا على الاقل

ماذا ستكون علاقتها بمصر ؟

ماذا ستكون علاقتها بالدول العربية ؟

هل ستكون قوة صديقة أم ستكون قوة معادية . ان الهنـــد حتى الآن تتودد لمصر والبلاد العربية ، وتقف الى جوارها فى هيئة الامم .. ولكن هذه السياسة ، أهى سياسة مؤقتة ام هى سياسة اصيلة. ان الهند اليوم وهى قريبة عهد بالاستعمار وفقدان الحرية ، من الطبيعى ان تعطف على الشعوب الصغيرة التى لا تزال مسلوبة الحرية...ولكن ماذا بعد أن تنسى الهند هذا الماضى القريب وتصبح عريقة فى استقلالها وسيادتها ، الى أى طريق سوف تدفعها ظروفها الطبيعية والنفسية؟

نحن نرى العلاقات اليوم بينها وبين الباكستان فى أعلى درجات التوتر مما يهدد بقيام حرب بين البلدين فى أى وقت وساعة ، فهل هذا التوتر وحى الساعة ونتيجة لعملية التقسيم وما استنزفته من جراح بحيث يمكن أن يخف هذا التوتر فى المستقبل كلما استقرت الاحوال واطمأنت الهند ، أم ان هذا الخلاف الحاد مع الباكستان ليس سوى أعراض لمرض أصيل فى الهند لن يلبث أن يتطور بتطور الهند فى معارج الصحة والقوة فيصبح خطرا على الباكستان ، بل وعلى كل الاقطار المجاورة .

أن للهند جاليات ضخمة فى جنوب افريقيا ، ولها جاليات فى شرق أفريقيا وفى وسطها وفى أوغندا وفى كينيا .. ومصر دولة افريقية ، وستأتى الساعة التى تتشابك مصالحها مع مصالح كل سكان افريقيا ... فهل ستتناقض هذه المصالح والعلاقات الافريقية فى يوم من الايام مع الهند ومصالحها ومصالح رعاياها ؟

كل هذه أسئلة كانت تختلج فى أعماق نفسى . وكان ذلك يضاعف من شوقى وتلهفى لزيارة الهند لاجد الاجابة على كل هذه الاسئلة .

وعندما هبطت بنا الطائرة على أرض مطار كلكتا ، أصبحت مشاعرى كمشاعر ذلك المتفرج الذى يذهب الى أحد المسارح أو احدى دور السينما فيروح يتساءل بشوق عن الرواية التى سيشهدها ، وهل هى جيدة أم رديئة ، ويروح يطالع فى البرنامج ويستحضر أسماء أبطال الرواية ويراجع الملخص أكثر من مرة ، حتى اذا أطفئت الانوار ورفعت الستار فى المسرح أو بدأ العرض فى السينما ، نسى المتفرج كل ما كان يهجس به واستغرق فى حوادث الرواية ، وهكذا كان شأنى ، لم تكد الطائرة تستقر على الارض وأخرج منها لارى صديقى قنصل مصر فى كلكتا الاستاذ مختار زكى واقفا فى انتظارى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل حتى كانت الستارة قد رفعت بالنسبة الى وبدأت فى مشاهدة قصة الهند .

الفصل الثانى
تغير وجه الحياة الهندية

عندما بدأت فى اليوم التالى مطالعتى لكتاب الهند مبتدئا بصفحات كلكتا لم يكن هناك جديد بالنسبة الى ، فهذا الفندق الذى نزلت فيه وهو «الفندق الشرقى الكبير» The Great Eastern Hotel

لم يكن جديدا على ففى طريقى الى رانجون مررت به وبت فيه ليلة ولذلك لم تدهشنى عظمته أو ضخامته ، وانما أسفت للظروف التى فرضت على الاقامة فى هذا الفندق لانها ستقيم بينى وبين الهند سدا الى حد ما . أن الحياة فى هذا الفندق تنسى الانسان انه فى الهند أو فى أى بلاد من بلاد العالم ، انها تذكر الانسان انه يعيش حياة الفنادق الكبرى وهى حياة قائمة بنفسها لاتتصل بأى بلد من البلاد ، ولاتتلون أو تتكيف بحياة هذا البلد . انها تخضع لروتين عالمى ومقاييس دولية لتوافق أمزجة السياح وكبار القوم الذين يشبهون فى بلادهم أن يكونوا سياحا ، اى لا عمل لهم الا انفاق المال والبحث عن المتعة . ولما كانت الهند مستعمرة انجليزية لمدة مائة وخمسين سنة فان سياحها وكبار القوم فيها لابد أن يكونوا مصبوغين بالصبغة الانجليزية أو الغربية بصفة عامة ولذلك فان فنادقها الكبرى أشبه الاشياء بفنادق انجلترا وأمريكا أو فرنسا أو السويد ـ نفس النظام ـ نفس الاسلوب ـ نفس المناظر ـ نفس الاطعمة ـ نفس لغة الحديث ، واعنى بهـا الانجليزية ولولا هذه الملابس الهندية التى يرتديها السفرجية ـ وهذه

---

(١) راجع كتاب يقظة العملاق



العمامة الموضوعة على رؤوسهم لماكانت هناك أى اشارة الى الهند عن قرب أو بعد - وفى صالون الفندق ترى اعلانات وصور عن الحفلة الراقصة التى ستقام فى المساء وعن المشاهد التى تقدم بها ولن تجد فيها نجمة او نجما هنديا واحدا ، فجميع المشتركين فيها من الارتستات الاوربيات ، انجليزيات أو فرنسيات أو ألمانيات . ولما كانت هذه الحفلة تقام فى نفس الصالة التى نتناول فيها العشاء فقد مكثت بها لاشهد ما يجرى .. وكان ما يجرى هو صورة طبق الاصل مما تراه فى أى ناد ليلى فى أى عاصمة من عواصم أوروبا . بل قد نرى فى نوادى أوروبا مشهدا أو مشهدين يقوم به بعض الفنانين من الهند - حواة أو راقصات أو من الفقراء الذين يحبسون أنفسهم داخل زجاجات أو صناديق أو يأكلون الزجاج وينامون على السيوف ويرقصون الحية والثعبان ... قد نرى بعض من ذلك فى نوادى اوربا الليلية وفى حفلات فنادقها الكبرى .. أما فى الهند - فى كلكتا - اكبر مدن الهند وأكثرها هندوكية فلم أر شيئا من هذا الذى كنت أمنى النفس برؤياه .

بل لقد أمضيت فى الهند ثلاثة أسابيع وغادرتها دون أن أرى مشهدا من هذه المشاهد الغريبة التى اشتهرت بها الهند • **لقد حدثنا ابن بطوطه فى كتابه عن هذا الفقير الذى يطير عن الارض ويرتفع الى سماء المكان ثم يضربه زميله بالحذاء فاذا هو يهبط ويهبط حتى يعود الى مكانه ، وحدثونا عن هذا الحبل الذى يقف عموديا فى الهواء كأنه قطعة من الحديد أو الصلب بحيث يستطيع أن يتسلقه أى انسان ثم يقول له الفقير ، أى للحبل ، أن يعود سيرته الاولى ، فاذا به يعود حبلا** • على أن الهند لم تكن تذكر فى أى مكان الا ويتبادر للذهن هذا الرجل العارى الجالس القرفصاء وفى فمه المزمار يعزف عليه وأمامه هذه الحية ذات الرأس العريضة وهى ترقص على نغمات المزمار •

وكنت أتصور اننى سأشهد مثل هذه المناظر فى كل مكان ولكن شيئا فى ذلك كله لم يقع عليه نظرى ســوى فى مدينة بنــارس حيث رأيت كارت بوستال يحتوى على صورة هذا الحاوى الذى يعزف للحية ، وعندما سألت أين يمكن أن يرى هذا الرجل ؟ قيل لى انه يأتى الى هذا الفندق كل يوم وانه كان هناك منذ لحظات فكيف لم أره. وعلى ذكر مدينة بنارس فهى المدينة الوحيدة التى رأيت فيها صورة من الهند التى نسمع عنها • ولولا بنارس وما رأيته فيها لخرجت من الهند دون أن أتذوق شيئا من الهند القديمة ، من الهند الخرافية ، ومن الهند الهندوكية ذات الصبغة الخاصة القوية النفاذة التى تصبغ كل من يقترب منها او يتصل بها •

الافيال والغابات والنمور

ولم تدع لنا الافلام الامريكية أو الانجليزية أن نتصور الهند ، على غير صورة الارض المليئة بالافيال والتى تستعمل فيها الافيال كمــا تستعمل الخيل والبغال والحمير فى بلادنا ، لم تسمح لنا بتصورها أرضا زراعية مليئة بالحقول التى تمتلىء بها بلادنا ، حقولا تنتج القمح والقطن والارز ، وانما الهند على ما تصوره الروايات والقصص بلاد مغطاة بالاحراش التى تسرح فيها النمور والاسود وكل الحيوانات

الضارية ، أما الثعابين والافاعي والقرود فهذا شيء يقابل الذباب فى بلادنا أو الناموس • وذهبت الى الهند وطرت فوق الهند فى وضح النهار ، وركبت السكك الحديدية وقطعت بها أكثر من ألف من الكيلو مترات، فلم تقع عيني على فيل واحد فضلاعن نمر مفترس، ولم أشهد الغابات والاحراش • وقد اضطررت اضطرارا لزيارة حديقة الحيوان فى كلكتا كى أرى بها بعض الافيال ولاشهد هذا النمر البنغالى الشهير الذى يحدثوننا عن شراسته وشدة ضراوته وفتكه ، أما فى غير حديقة الحيوان فليس سوى الحقول والمزارع والقرى التى تذكرنا بالمنظر فى مصر • ولقد تصورت بعض الوقت ان مرجع ذلك اننى لم أر من الهند الا قطعة واحدة ، واننى بالذات قد اخترقت بالقطار أحد سهولها الغنية بالزراعة وان باقى الهند هو المغطى بالاحراش والغابات والمناظر التى أتصورها •• **ولكننى بعد ذلك طالعت أثناء اقامتى فى نيو دلهى مقالا فى احدى صحفها يستصرخ فيه الكاتب الحكومة ان تسعى لانقاذ البقية الباقية من وحوش الهند الضارية بالابقاء على بقايا الغابات القليلة فى أرجاء الهند ، فان يد العمران قد امتدت الى كل مكان لاحلال الارض الزراعية محل الغابات ، وان وحوش الهند التى اشتهرت بها كالاسود والنمور والفهود فى طريقها الى الانقراض ، فتفقد الهند بذلك متعة من اكبر المتع التى تستجلب السياح من ارجاء العالمين وهى صيد هذه الوحوش الكاسرة • وفهمت من هذا المقال ان الغابات فى الهند قد أصبحت فى طريقها الى أن تكون من ذكريات الهند اذا لم تتداركها الحكومة بالمحافظة عليها وعلى ساكنيها من الضوارى •**

وقرأت فى مطالعاتى ان الفيلة المستأنسة لا تزال بالفعل فى بعض الولايات الهندية التى لم تتح لى زيارتها وخاصة فى ولاية ميسور • وفى الاستعراض الكبير الذى أقيم فى نيو دلهى بمناسبة عيد الاستقلال • مرت وحدات من قوات الجيش الهندى الحديث •• مرت طائرات الجيت ودبابات شرمان وأجهزة الرادار ومر فى نهايـــة الاستعراض فيلان يرمزان لما كانت عليه جيوش الهند فى القديم من تفوق واقتدار لاستعانتها بالفيلة فى الحرب والقتال •

وهكذا كان كل ما رأيته من الفيلة فى الهند ، فيلان أو ثلاثة فى حديقة الحيوان كتلك التى تراها فى مصر . وفيلان يسيران بعد ذلك فى استعراض يسير مثلما يشاهدفى شوارع نيويورك أو لندن كلمـــا أراد أحد الملاهى البهلوانية ان يعلن عن بضاعته .

فما أعجب الفارق دائما بين ما يتخيله انسان عن مكان من الامكنة، وبين ما يلقاه عليه فى الحقيقة ، ماأعظم الفارق الذى حاول الاوربيون المستعمرون أن يصوروا بلادنا عليه وما هى عليه فى الحقيقة ، فكما أن مصر اذا ذكرت ، لم يطف فى خيال الاوربيين سوى الصحـــراء والجمال والاهرام . ويزيد بعضهم فى الخيال فيتصور التماسيح تسبح فى شوارع القاهرة التى ليست فى الحقيقة سوى ترع وقنايات تتفرع من نهر النيل المغطى بالطحالب والاعشاب .



وكذلك صوروا الهند الحديثة لنا غابات واحراش وافيال ونمور ومهراجات يلبسون الجواهر واللآلىء فوق الافيال المكسوة بالحرير والذهب .. حتى اذا ذهبت الى الهند رأيت شيئا يغاير ذلك كله .. وجدت مدنا حديثة عصرية كأى مدينة فى انحاء العالمين .. فليست كلكتا سوى مدينة تشبه ان تكون مجموعة من القاهرة والاسكندرية وطنطا وبورسعيد . مع بعض تعديلات واستثناءات طفيفة هنـا وهناك . السينمات هى السينمات ، وسينما مترو هى بذاتها سينما

مترو فى القاهرة والميادين هى الميادين والشوارع هى الشوارع والتاكسيات والاتوبيس والترام والفنادق ودواوين الحكومة والبنوك والاحياء الفقيرة ، كل شىء متقارب ، لا شىء يلفت النظر بصفة خاصة او يفاجأ الزائر .

الطبقات والمنبوذون

وحدثونا طويلا مذ كنا صغارا عن هذه اللعنة التى منيت بها الهند ـ لعنة الطبقات والمنبوذين وان بها ستين مليونا من البشر يطلقون عليهم المنبوذين ، وتارة يسمونهم بالانجاس ـ وهم هؤلاء الذين لا ينتمون الى احدى الطبقات الاربعة التى يتألف منها المجتمع الهندى ٠ وهذه الطبقات هى « البراهمة » وهى طبقة الكهان ورجال الدين والذين جعل اختصاصهم العلم والتعليم والارشاد ، والطبقة الثانية هى طبقة «الكشتريا» اى طبقة العسكريين ، ومنهم الملوك والامراء والفرسان وبصفة عامة أهل الحكم والحرب ٠ والطبقة الثالثة «الفشيا» وهم التجار ونظراؤهم من الملاك وأصحاب الحرف ٠ والطبقة الرابعة هم «الشودرا» وهم طبقة الفلاحين والصناع والمهن الدنيا . وهناك قول على ان منشأ هذه الطبقات فى الهند يرجع الى غزو الهند بعناصر اجنبية من الآريين جعلهم ينظرون الى السكان الاصليين من «الدارفديان» على انهم طبقة دون طبقة الفاتحين ، وهناك قول يرجع هذه الطبقات الى تنظيم المجتمع الى طوائف تعاونية ينتمى كل فرد الى طائفة معينة لتتولى حمايته ومعاونته ٠

وسواء أكان منشأ هذه الطبقات هذا التفسير او ذاك او تفسير يخالف ذلك كله كل المخالفة ٠ فالاجماع منعقد على أنه لم تكن هناك فواصل حديدية بين هذه الطبقات الاربعة ، وانه كان باستطاعة اى عضو فى طبقة من هذه الطبقات أن يرتقى الى الطبقة الثانية دون أن يكون عليه خطر أو يجد من يتتبعه ويقيم عليه الدعوى العمومية لرده الى طبقته الاولى ٠٠٠ وكيفما كانت أوضاع هذه الطبقات فقد كان هناك اجماع على ان اى عضو من اعضاء هذه الطبقات الاربعة يحصل

على الاحترام والتقدير الذى يناله أى عضو فى طبقة أخرى متى أخلص فى عمله • ولقد طالعت بنفسى نصا رائعا فى كتاب « الجيتا » المقدس تقرر بالحرف الواحد : **«وليس لانسان ان يقرر هذه الفروق بين الناس ولا هى خلقية طبيعية ، وانما خلق الناس على طبائع اربعة كل طبع يميل الى صنف من العمل ويصلح له • واختلاف الطبائع هذا جبلى، فعلى كل واحد من الناس ان يشتغل بالعمل الذى يميل اليه ويصلح له بطبعه • فمن قام بعمله وهو يبتغى رضوان ربه ، فهو يصل الى الكمال ويفوز بالنجاح»** •

فالطبقات فى الهند ، لم تكن بهذه الصورة البشعة التى اشتهرت بها الهند فى خلال حكم الانجليز والتى لا يمكن ان يصفها الانسان الا بأنها لعنة ووصمة عار • وصم به المجتمع الهندى طوال حكم الانجليز • ولم يكن ذلك الا من فعل الاستعمار الانجليزى ، الذى ما كان ليستطيع ان يحكم الهند الا من خلال قاعدته الذهبية « فرق تسد » ولم يكن الانجليز فى حاجة الى خلق هذه النظرية خلقا فقد كان أساسها موجودا وكل ما عليهم ان ينفخوا فى نيران هذه التفرقة وأن يضعوا الفواصل الحديدية بين مختلف الطبقات ، وان يزيدوا من طائفة المنبوذين والانجاس وهم كل أفراد الشعب الذى لا ينتمى لاحدى الطبقات الاربعة • وكانت طريقة الانجليز لذلك سهلة ميسورة وذلك باعداد سجل لكل هذا ، يبدأ بشهادة ميلاده وتسجل فيه الطبقة التى ينتمى اليها ، فاذا لم يكن ينتمى الى طبقة من الطبقات الاربعة على سبيل التحقيق سجل فى عداد المنبوذين والانجاس • ولم تكن الهند تعرف فى القديم هذه السجلات أو شهادات الميلاد ، والهند قارة كبرى لا يعرف الانسان أولها من آخرها ، وكان باستطاعة أى هندى أن يسافر من اقليم الى اقليم آخر لكى يبدأ حياته فيها من أى درجة يشاء ••• أما فى ظل الانجليز وفى ظل السجلات فهو مطالب فى كل مكان أن يسجل اسمه وان يعلن عن طبقته وهكذا خلقت الفواصل الحديدية بين الطبقات ، وتأصلت الفروق وساءت حالة المنبوذين

الى صورة لا نظن انها شوهدت فى الهند من قبل فى أى عصر من العصور •

كان على المنبوذين وعدتهم ستون مليونا من البشر أن لا يسيروا فى الطرقات العامة التى يسير عليها سائر البشر ، وكان عليهم ان لا يستقوا من الابار العامة التى يستقى منها سائر البشر ، وكان عليهم أن لا يقربوا المعابد • واذا كانوا ممنوعين من ارتياد المعابد او اجتياز الطرقات لكى لا تقع عليهم اعين البراهمة ، ولا يشربون مما يشرب الناس لكى لا ينجسوا مصادر المياه فباستطاعتك أن تتصور أى حياة قد فرضت على هؤلاء التعساء ، وأى فقر وأى ذل ومهانة قد عاشوا فيها طوال حكم الانجليز • كل ذلك حدثونا عنه الحديث الطويل المسهب ، وكان الانسان يتقزز ويتقزز كلما سمع هذه الاخبار عن الهند والمجتمع الهندى ، ويمتلىء بالسخط والغضب على هذه العقلية الفاسدة •

وما أكثر القصص والروايات التى سمعها الانسان من فم كل من زار الهند عن تجاربه الشخصية فى هذا السبيل •

ولذلك فقد كنت شديد اللهفة عند زيارتى للهند ان أرى كيف ستصدمنى هذه الصورة الكريهة من صور الحياة الهندية فاذا بى أدخل الهند وأخرج منها دون أن أشعر بأى أثر لوجود الطبقات ، أو لقيام طائفة المنبوذين • « لا جدال اننى لم أمتزج بالحياة الهندية فقد ذكرت اننى عشت دائما فى فنادق تشبه ان تكون فنادق أوربية أو أمريكية ، ولم أتجول فى أرجاء الهند كلها واقتصرت زيارتى على بعض المدن الكبرى كما قدمت ، وأعنى بها كلكتا وبومباى وبنارس وأجرا ونيو دلهى • ولكن الذى لا جدال فيه أيضا ان ثلاثة أسابيع فى قطر من الاقطار والاختلاف الى مدنه الكبرى كفيل بأن يجعل الانسان يلمس هذا الطابع البارز الذى كان يطبع الحياة الهندية ويصبغها بهذه الصبغة الكريهة ، فكونى لا أستطيع أن أكتشف أثر هذه الطبقات وحياة المنبوذين ، لهو الدليل الذى لا يعوزه الدليل

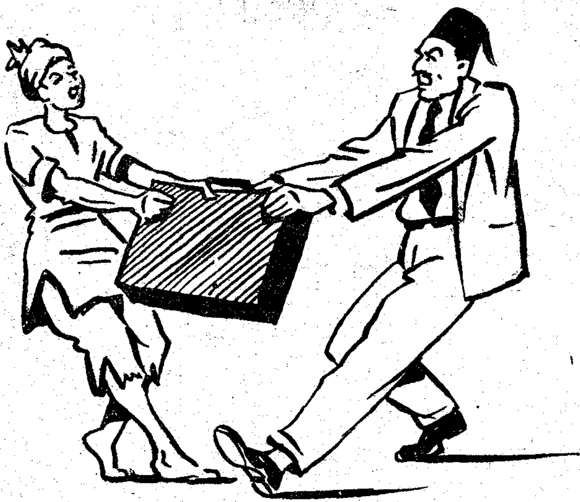
على أن وجه الحياة الهندية قد تغير تغيرا كاملا بحيث لم يعد باستطاعة الغريب أو السائح الاجنبى أن يتبين الفروق فى المجتمع أو أن يلمس هذه اللعنة التى كانت تضرب على ستين مليونا من البشر ٠

لقد تجولت فى الطرقات راكبا سيارة أو ماشيا على قدمى أو فى احدى السيارات العامة أو الترام ودخلنا بعض المكتبات والمتاحف والسينمات ، والمصانع ، والمتاجر ، والاسواق ، والمطاعم ، فلم أجد الا أن الناس تدخل فى أى مكان ، وتجلس فى أى مكان وتتعامل مع أى انسان دون أن يسأل الانسان عن طبقته ودينه أو شخصيته بل لقد دخلنا المعابد فى كلكتا وفى نيو دلهى وبعض المعابد فى بنارس دون أن يعترضنا انسان٠ وليس سوى فى بنارس من قال لنا انه باعتبارنا من الاجانب لا يسمح لنا بدخول بعض المعابد ، ومع ذلك فقد سمح لنا أن ننظر الى هذه المعابد من خلال كوة أعدت لهذا الغرض ، بل اننا صعدنا الى احد البيوت ليكون باستطاعتنا ان نرى كل ما يدور بداخل المعبد ٠ وكان صاحب هذا البيت الذى صعدنا اليه لنرى هذا المنظر هو احد كهنة المعبد والذى اجر هذا البيت خصيصا لهذا الغرض ٠

وباستثناء معبد أو معبدين فقد سمح لنا ان ندخل باقى المعابد يرافقنا بعض الكهان الذين قلدونا هذا العقد التقليدى من الزهور لكى ننفحهم ببضعة «انات» اى دريهمات ومثل هذا الحظر عن ارتياد بعض المعابد لا يمكن أن يكون شيئا ذا بال ، فنحن المسلمين نحظر على غير المسلمين ارتياد مكة وما حولها والمدينة وما حولها ، ولكننا دخلنا بنارس مدينة الهنود المقدسة والتى يحجون اليها كما يحج المسلمون الى مكة ٠

ولكى أكون دقيقا فى روايتى يجب أن أسجل ملاحظتان تتصلان بموضوع الطبقات وطائفة المنبوذين ٠ أما الملاحظة الاولى فهى وجود طائفة الحمالين الذين لا يحق لغيرهم ان يحمل شيئا ويطلقون عليهم كلمة الكولى ٠ لا يكاد الانسان يصل الى المطار أو الى الفندق أو الى

محطة السكة الحديد حتى يتقدم الحمالون لحمل الامتعة ، وقد يكون أمامك أحد خدم الفندق فينادى على حمال مخصص لحمل هذه الامتعة • وعندما يدخل الانسان الى حجرته فى الفندق يقدم له شخص على أنه «الكولى» الخاص به • واذا خرج الانسان الى السوق ليشترى شيئا تقدم له الكولى ليحمل له ما يشتريه • وراح صديقى الاستاذ



من حق الكولى أن يحمل هذه الحقيبة

مختار زكى يشرح لى هذه الظاهرة ويفسرها وهو ان طائفة الحمالين هذه، هى طائفة قائمة بذاتها لا ينبغى لاحد غيرها أن يقوم بمهمة الحمل حتى ولا صاحب الشىء نفسه • كما ان عملية الكنس يقوم بها طائفة معينة ولا يقوم بها أى انسان آخر غيرهم ، فاذا استأجرت خادما فى بيتك فهو يقوم بخدمتك دون عملية الكنس التى يقوم بها شخص آخر لا عمل له سوى هذا الكنس •

هذا ما قيل لى وما شهدته بنفسى بالنسبة للحمالين، ولم أر فى ذلك شيئا غريبا جديرا بالاستهجان ، فهو نوع من أنواع التخصص • وقد طالعت مرة أن نفرا من عمال الاستديوهات فى هوليوود عاصمة

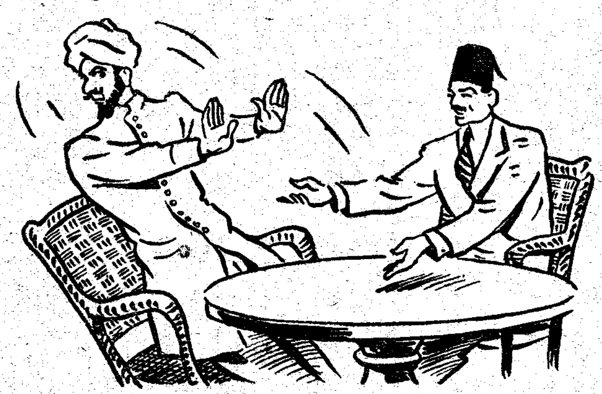
السينما قد قاموا بالاضراب للاختلاف حول من له الحق فى تحريك قطع الاثاث بعد وجودها على مسرح التمثيل ، فثمة فريق من العمال ينقلونها من المخازن حتى مكان التمثيل والتصوير «البلاتو» وعمال آخرون هم الذين يتولون وضع هذه الاثاث فى مكانها المخصص ، وتحريكها من موضع الى موضع ، فلما فكر المخرجون فى خلط العمليتين ، أضرب العمال قائلين ان هذا اعتداء على اختصاصهم . كما ان وضع زهريات الورد فى المناظر من اختصاص طائفة معينة من العمال لا يسمحون لطائفة اخرى بمزاولة هذا العمل . فالنقابات فى العصر الحديث تدافع عن حقوق المنتسبين اليها ، فأن يكون فى الهند طائفة تختص برفع الاحمال وتعتبر ذلك اختصاصا لها لا يصح لاحد أن يعتدى عليه ، وان توجد طائفة للكناسين تعتبر ان ذلك حقا لها . لا أتصور ان ذلك المعنى بالشىء الغريب أو المستهجن وانما يبدأ استهجانه ، ويبدأ شذوذه عندما يقال لهذا الكناس او هذا الحمال انه لا يستطيع أبدا ان يغير هذه المهنة أو ان يرنو ببصره الى مهنة أخرى ، فضلا عن ان يطمع فى أن يتعلم وينال حظا من العلم . وهذا هو ما كان يفعله الانجليز حيث كانوا يبقون هذه الطوائف المنكودة فى دائرتها الحديدية التى فرضتها عليهم التقاليد والقوانين ، ويضيفون على ذلك أثقال الجهل والفقر فلا تستطيع هذه الطوائف المسحوقة ان تخرج من هذا المصير ، الذى فرض عليها وعلى أولادها الى الابد أن يكونوا كناسين أو حمالين .

اما الآن وقد اصبح دستور الهند يعتبر جريمة مما يعاقب عليها القانون ، التفريق فى معاملة الناس بسبب الجنس او الطبقة او المهنة أو الطائفة ، الآن وجميع الهنود سواء أمام القانون ، والفرص متكافئة أمام الجميع .. الآن وحكومة الهند تعلم وتعلم فى كل مكان ، لا تفرق بين برهمى وبين منبوذ وانما المدارس للجميع . بل والمدارس للمنبوذين بصفة خاصة والارتقاء بهم وتعويضهم عن هذه السنوات التى امضوها فى هذه القيود والاغلال .. فان هذا الذى رأيته فى الهند من تخصص طائفة الحمالين والكناسين فى مهنتهم حتى الآن ، لم

يعلق بذهني كما لا يمكن ان يعلق بذهن أى انسان على انه وضع غريب أو شاذ ، ولولا رغبتى فى أن أسجل هذا الذى قيل لى لتكون الصورة كاملة وصادقة لما اعتبرت هذا الذى رأيت ، وقيل لى شيئا جديرا بالتسجيل على اعتباره مظهر من مظاهر الطبقات أو سوء حالة المنبوذين ...

يرفض تناول شيء

أما الحادث الثانى أو لعله الحادث الوحيد الذى صادفنى أثناء اقامتى فى الهند ـ فقد كان فى مدينة بنارس ـ دخلت الى أحد المتاجر المشهورة فى بيع أقمشة من نوع خاص لاشترى قطعة قماش لزوجتى على سبيل الهدية ، فوجدت ثمنها مرتفعا الى درجة لا تستطيع ميزانيتى تحملها فغادرت المحل . وعند المساء وجدت التاجر فى انتظارى فى

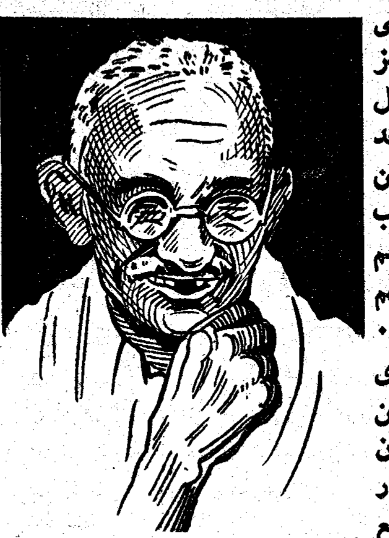


واصر الرجل على الاعتذار مرتبكا

الفندق ومعه قطعة القماش التى اخترتها وهو يعرضها على بتخفيض فى الثمن أو أن أرسل ثمنها من مصر اذا لم يكن معى نقود ، وطالت المفاوضات والرجل حريص على أن يبيعنى قطعة القماش بأى سبيل وأنا شديد الرغبة فى التخلص منه دون جدوى وفى أثناء المناقشة سألته اذا كان يحب أن يشرب شايا أو قهوة لاحضرها له من الفندق

فاعتذر انه لا يشرب شيئا .. فتصورت ان ذلك من باب الحياء فألححت عليه وناديت الجرسون فوجدت الارتباك يظهر على الرجل ويصر على الاعتذار وأصررت من ناحيتي على ضرورة أن أقدم له شيئا على سبيل التحية ، وأخيرا قال الرجل انه لا يشرب شيئا في غير منزله واستشهد ببعض من يعرفونه من موظفي الفندق فأمنوا على قوله ، وفجأة تذكرت انني في بنارس وانني قد أكون في مواجهة واحد ممن يتمسكون بدينهم وطائفتهم التي تحول بينهم وبين تناول الطعام أو الشراب من أيدي أشخاص لا يعرفونهم وليسوا من طبقتهم. وكان هذا هو الحادث الوحيد من نوعه الذي صادفني خلال اقامتي بالهند .

ربما لو تجولت في القرى والدساكر أو غصت الى أعماق الحياة اليومية أكثر وأكثر لوجدت من طراز هذا التاجر الذي رفض أن يتناول شيئا في فندق من الفنادق ، ولو غصنا في أعماق حياة أي شعب من الشعوب سواء في أوربا أو في آسيا لوجدنا المعجب والمطرب . والذي يهمنا الآن من حياة الهند ليس ما نعثر عليه تحت السطح أو اذا نفذنا الى الاعماق ، وانما الذي يهمنا هو وجه الحياة العامة ، وهل تسودها الديمقراطية الحديثة أم لا . وهل تحكم وتساس على أساس المساواة ؟ أم على أساس من الطائفية والطبقية ، وفي منتهى علمي ان الهند اليوم تحكم وتدار على أساس من المساواة المطلقة بين الجميع ، وما رأيته وشاهدته بنفسي لن يجعلني أرى غير هذا الذي علمته من مطالعتي قبل وبعد زيارتي للهند ، وكفاح غاندي في سبيل المنبوذين ، ولقد رحت أسائل نفسي ابان اقامتي في الهند . هل هذا المظهر الجديد من المساواة بين جميع الهنود هو أثر من آثار الاستقلال . أم ان الهند ما كانت لتصل الى هذا الاستقلال لولا انها قطعت شوطا كبيرا نحو هذه المساواة والقضاء على هذه الوصمة التي كانت تصم المجتمع الهندي وتجعله عنوانا للتخلف والانحطاط ؟ فان رفع اللعنة عن المنبوذين لم تبدأ اليوم فقط او من الامس القريب أي عشية اعلان الاستقلال بل انها بدأت قبل ذلك خلال عشرين سنة أو يزيد من كفاح غاندي في سبيل تحرير المنبوذين .


غاندى القديس الثائر

فلقـــد قام غاندى يكافح فى سبيل حرية الهند من الانجليـز وسرعان ما أدرك أن لا ســـبيل للحصول على هذه الحرية الا بعد أن يحـــرر الهنـــود مـــن أنفسهم أولا ، فوضـــع نصب عينه تحرير المنبوذين وتحطيـم هذه القيود والاغلال التى تبقيهم فى هذا الدرك الاسفل من المجتمع. ومن أراد أن يدرك عظمة غاندى الحقيقية وكيف أخرج الهند من الظلمات الى النور قبـــل أن يخرجهـــا من ربقـة الاستعمار الانجليزى فما عليه الا أن يتتبع جهاده الرائع لتحـرير المنبوذين وكيف استجابت له الهند كلها بما لم يسبق له مثيل فى أى دور من أدوار تاريخها .

بدأ غاندى كفاحه فى سبيل المنبوذين منذ وقت مبكر ، فوصف حالتهم أدق وصف ، واذا علمت ان غاندى عاش طوال عمره يعبـــد الحق ، ويكره المبالغة والتهويل فى التعبير ، وينفر من الالفاظ البراقة التى تبعد الذهن عن تصور الحقيقة بالدقة .. اذا استحضرت ذلك فى ذهنك ، فربما كانت عبارات غاندى التالية فى وصف حالة المنبوذين تعطيك صورة على حقيقة المأساة التى كان يعانيها ستون مليونا من البشر قبل كفاح غاندى فى سبيلهم .

قال غاندى :

« هؤلاء المنبوذون يعتبرون من الناحيــة الاجتماعية كالمصابين بالبرص . ومن الناحية الاقتصادية فهم اسوأ من العبيد ومن الناحية

الدينية فان حق دخول المعابد التى يطلق عليها «خطا» بيوت اللــه ، منكور عليهم ، ومحظور عليهم استخدام الطرق العامة والمدارس العامة والمستشفيات العامة والآبار العامة وما يشبهها . وفى بعض الاحوال يعتبر اقترابهم فى حدود مسافة معينة جريمة اجتماعية وفى بعض احوال اخرى نادرة يعتبر مجرد وقوع العين عليهم جريمة كذلك . وهم لا يسكنون من المدن والقرى الا احط احيائها حيث لا توجد اى وسائل عمرانية ولا يرتضى المحامون الهندوكيون او الاطبـــاء ان يخدمونهم . أما البراهمة فيرفضون ان يقوموا لهم بالطقوس الدينية»

هذه هى حالة المنبوذين فى الهند كما وصفها غاندى من قبل ، ومن هذه النقطة بدأ كفاحه لتحرير الهند من هذه اللعنة قبل ان يحررها من الانجليز، فحمل المؤتمر الوطنى فى سنة ١٩١٩ على ان يصدر قرارات برفع مستوى المنبوذين وتحطيم القيود التى تفصل بينهم وبين سائر الهنود المحترمين .

ولاول مرة فى تاريخ الهند شنت حملة هائلة من الدعاية فى هذا السبيل ، فشاهدت القرى الوف الشبان من طلبة الجامعات وفتياتها وهم يغشون بيوت المنبوذين ويدعون للتآخى معهم ، ورفع كل المحظورات عنهم ، فاهتز ضمير الملايين من الهنود على هذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل . وبدأ المنبوذون أنفسهم يستردون الثقـة بانفسهم فقرروا ان يسيروا فى الطرقات العامة فتصدى لهم البوليس الانجليزى الذى كان يرى فى تحرير المنبوذين أول خطـوات تحرير الهند كلها . ولكن غاندى علم المنبوذين « المقاومة فى غير عنف » وهى هذا الدين الذى بشر به غاندى فى مقاومة الشرور والاحتلال الانجليزى والذى أطلق عليه كلمة « ساتيا جراها » مستمدا عناصره من المبدأ الخالد فى الديانة الهندوكية وهو «الاهمسا» اى عدم العنف .

ولمدة ستة عشر شهرا وقف المتطوعون من المنبوذين أمام البوليس وجها لوجه يقابلون عدوانه عليهم بالصبر والتجلد ـ وكلما اعتقل منهم مئات حلت محلهم الالوف ... وبدأت قضية المنبوذين تحوز

عطف الرأى العام كله فلم تستطع الحكومة الهندية أو بالاحرى الحكومة الانجليزية الا أن ترضخ للامر الواقع فأصدرت الامر بفتح الطرقات العامة للمنبوذين . وكان ذلك هو بداية النهاية ، ليس فقط بالنسبة للمنبوذين ــ بل بالنسبة لقضية الهند كلها ــ فقدتعلم الضعفاء كيف يثقون بانفسهم ــ وكيف لايخافون الحكومة وهم يطالبون بحقوقهم . وكتب غاندى يعلق على قرار فتح الطرقات العامة بقوله: «ان ذلك ليس هو الخطوة الاخيرة ، بل هو الخطوة الاولى فى سلم الارتقاء بأبناء الله . فيجب أن تفتح لهم المعابد ، والآبار ، والمدارس ، وأن يسمح لهم بمشاطرة باقى الطوائف الهندية فى كل شىء . »

وفى سبيل هذه الغاية طاف غاندى الهند من شمالها الى جنوبها ــ ومن شرقها الى غربها ــ وعقد مئات الاجتماعات التى احتشدت فيها عشرات الالوف . ولم يقف غاندى عند حد الدعوة بلسانه وقلبه ــ واجترائه على مواجهة الملايين الغاضبة من الهندوكيين المتعصبين الذين ران الجهل على قلوبهم فأعماهم عن رؤية الحق ، بل عن فهم تعاليم دينهم نفسه ، لم يقف غاندى عند هذا الحد بل ذهب الى ابعد من ذلك كله فتبنى احد ابناء المنبوذين وضمه الى عائلته واولاده، وهو عمل اثار عليه حفيظة المتهوسين الذين اعتبروا ذلك أكبر كفر والحاد .. ولكن غاندى مضى فى طريقه لا يلوى على شىء ... وعندما أحس بحركات من الانجليز لعرقلة مساعيه ببعض مناوراتهم الخبيثة ، أعلن الصيام حتى الموت فى عام ١٩٣٢ اذا لم تقتلع بذور الشر من أساسها وتفتح المعابد، والابار والمدارس للمنبوذين ... ولم تمض خمسة أيام من صيام غاندى حتى استجابت الامة له ، وفى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٢ فتح مائة وخمسون معبدا للمنبوذين وسمح لهم بالشرب من كثير من الآبار العامة .

وألف غاندى عقب صيامه جمعية لمواصلة العمل لرفعة المنبوذين « أبناء الله » فبدأت تفتح المدارس فى كل مكان بطريقة دائمة منظمة .

وفى الوقت الذى كان غاندى يطوف فيه الهند مبشرا بتحرير أبناء

الله ، كان يدعو فيه المنبوذين أنفسهم للارتقاء بشئونهم من حيث النظافة العامة ، والاخذ بقواعد الصحة والطهارة ، وفى هذا السبيل قام غاندى بنفسه بتنظيف مراحيض بيوت بعض هؤلاء المنبوذين ليكون لهمفيه قدوة واماما• ونحسب ان ليس فى تاريخالبشر قديسين كثيرين أو قليلين فعلوا فعلة غاندى فنظفوا مراحيض أحط الطبقات فى السلم الاجتماعى ، ليرتقوا بهم فى سلم الانسانية وليردوهم الى صفوف الآدميين الاحرار •

وكان طبيعيا بعد هذه الجهود الصادقة ـ وهذا الايمان العميق الذى لا يستطيع الانسان الا أن ينحنى تمجيدا له واكبارا•• أن تنهار السدود والقيود ، وأن تتداعى هذه الحصون الوهمية الخرافية التى فرقت بين المنبوذين وباقى طوائف الهند فلم يأت عام ١٩٣٧ وتتسلم حكومات المؤتمر الوطنى الحكم فى الولايات الهندية المختلفة حتىجعلوا الارتقاء بالمنبوذين هو أول همهم ، والغاء كل القيود التى تفرق بينهم وبين سائر المواطنين ، وأدخل «أبناء الله» الى الوظائف الحكومية ، وعين منهم رجال البوليس والادارة، وأصبح منهم المعلمون والمدرسون، بل والقضاة والوزراء والحكام • وأخيرا جاء الاستقلال وجاء معه دستور الهند فقرر فى مادته السابعة عشرة **«النجاسة ملغاة ومزاولة كل ما بنى عليها فى أى صورة من الصور أصبح محظورا كذلك ، وكل محاولة لاهدار الحقوق أو التفريق بسبب النجاسة يؤلف جريمة يعاقب عليها بمقتضى القانون»** • ولم يكتف الدستور بهذه المادة العامة بل كان أكثر تحديدا للهدف المقصود فى المادة الخامسة عشرة فقرر بصريح اللفظ « يحظر حظرا باتا أن تنقص حقوق مواطن أو يؤثر على صلاحيته التامة ، أو أن يحال بينه بسبب الدين ، أو الجنس ، أو الذكورة أو الانوثة ، أو موطن الميلاد وبين أن يغشى :

ا ـ المحلات العامة ، والمحلات التجارية ، والفنادق ، والمطاعم ، وأماكن التسلية ، الخ •••

ب ـ استعمال الآبار والخزانات وشواطىء الاستحمام المقدسة ـ

والطرق وجميع الاماكن العامة التى ينفق عليها من الاموال العامة أو المخصصة للاستعمال العام » •

ثم عزز هذا النص بنص آخر مكمل وهو :

« لا يحال بين أى مواطن وبين الالتحاق بأى معهد تعليمى تابع للدولة بسبب الدين أو الجنس أو بسبب أى منهما على حدة » •

ولم تكتف الحكومة الهندية فى عهد الاستقلال بهذه النصوص تضعها فى الدستور ، بل لقد أدرك زعماء الهند ان النصوص وحدها لا تكفى لتصحيح ما عملت الاجيال على تكوينه ، وانه لابد من أن تبذل الدولة جهدا خاصا للارتقاء بطبقة المنبوذين «سابقا» وأمثالهم من الطوائف المتخلفة كالقبائل البدائية ، والتى لا تزال على الفطرة ولذلك فقد فرض فى الدستور التزاما دائما على الدولة ان تبذل عناية خاصة برفع المستوى الثقافى والاقتصادى للاقسام الضعيفة من الشعب الهندى وخاصة الطبقات المعينة والمنبوذة « سابقا » والقبائل المعينة ، ويتعين عليها ان تحميهم من الظلم الاجتماعى وكل صور الاستغلال والامتهان ، وحتم الدستور الهندى كذلك ان يكون لهذه الطبقة التى أصبح يطلق عليها اسم «**الطبقة المعينة**» ممثلين فى مجلس الشعب والمجلس التشريعى ، وذلك ليسهروا باستمرار على حقوق هذه الملايين وخول لرئيس الجمهورية الهندية السلطات اللازمة لتأليف لجنة تحقيق لتدرس خير السبل لتحسين أحوال هذه الملايين وادماجها بصفة نهائية فى المجتمع الهندى الموحد • وفى مشروع الخمس سنوات الذى وضعته الحكومة الهندية للنهوض بالهند، رصد مبلغ مائة وثمانين مليونا من الروبيات لرفع مستوى هذه الطبقة ، وفى باقى المشروعات الاخرى الزراعية والصناعية وصناعات «الكوخ» خصص لهم جانب كبير من الميزانيات المختلفة •• وهكذا نجحت هذه الحملة التى بدأها غاندى فى عام ١٩١٩ لرفع هذه الوصمة عن المجتمع الهندى والذى كانت تجعله محل الزراية والامتهان ، بل وكانت تبرر فى أنظار الملايين من المخدوعين فى أرجاء العالم ، استمرار الاستعمار الانجليزى

للهند ناسين ان هذا الاستعمار نفسه هو الذى عمل على استدامة هذه الحالة المقوتة ، لاستدامة نفوذه وسلطانه • واليوم يقول لك تقرير الحكومة الهندية نفسه ان الهند لم تبرأ نهائيا من هذا الداء الوبيل ، فليس من اليسير التخلص من آثار الماضى الذى دام عدة قرون ، وكثير من القرى النائية والجهات المحافظة فى أرجاء الهند الشاسعة لا تزال بعيدة عن هذه الحياة الجديدة النظيفة الادمية •• ولكنها مسألة وقت لا أكثر • ونهضة الهند الجبارة فى نشر العلم والحضارة والتصنيع والنظم الديمقراطية كفيلة فى بضع سنوات قادمة بالقضاء على كل أثر لهذا الماضى التعس •



المسلمون فى الهند

وكان للمسلمين قضية فى الهند ، واشتعلت نيران العداوة بين المسلمين والهندوس الى الحد الذى أجرى بينهما الدماء أنهارا على أثر تقسيم الهند والباكستان• وكانت هذه المذابح هى قمة هذا العداء الذى استحكم بين الطرفين والذى لم ير معه زعماء الطائفتين حلا لهذا العداء الا بالرضاء بتقسيم الهند الى دولة الهند والباكستان ، وذلك توصلا لتحقيق الاستقلال الذى علقه الانجليز بهذا الشرط ، شرط التقسيم •

وليس الآن محل الحديث عن المسلمين وصلتهم بالهند وتاريخ هذه

الصلات، والاثر البعيد الذى أحدثته الحضارة الاسلامية فى الهنـد فسوف أفرد لذلك فصلا خاصا فيما بعد ، ولكننى أعرض لهذا الخاطر الذى طاف بذهنى قبل زيارتى للهند ، وأعنى به العداء المستحكم بين المسلمين والهندوس والذى ازداد استحكاما بعد نشوء الباكستان وما جر فى آثاره من مذابح لم يسمع بمثلها التاريخ ·

ان التاريخ يحدثنا عن خروج بنى اسرائيل من مصر، كصورة فريدة من صور الهجرة الجماعية ، وفى التاريخ الحديث سمعنا عن هجرة بعض أقليات من دولة الى دولة على أثر تقسيم سياسى عقب حرب من الحروب· ولكن التاريخ لم يدر بخياله ان ملايينا من البشر سيسيرون فى اتجاهين متعارضين كما حدث عشية ميلاد الهند والباكستان ·· فسبعة ملايين أو يزيدون من المسلمين المقيمين فى أرجاء الهند قد اندفعوا صوب الباكستان القريبة نجاة بأنفسهم من الويلات والمخـاطر التى يتعرضون لها فى الهند تاركين وراءهم بيوتهم وأملاكهم ومنقولاتهم وغير حاملين معهم الا القليل التافه ، وحدث مثل ذلك فى الاتجاه المضاد حيث اندفع ملايين من الهندوس يناهزون الملايين الخمسة أو الستة مخلفين وراءهم الباكستان الشرقية والغربية ليقيموا فى دولة الهند الجديدة ·

ولقد تعرض المسلمون ابان هجرتهم الى محن يشيب لهولها الولدان حيث أبيدت قوافل بأكملها برجالها ونسائها وأطفالها ويقول الهنود ان مثل ذلك حدث لمهاجريهم أثناء عبورهم الباكستان · وليس من مهمة هذا الكتاب أن يؤجج نيران العداوة والبغضاء بين الشعبين الهنـدى والباكستانى فنسمح لانفسنا بالاسهاب فى سرد التفاصيل أو الانحاء باللائمة على هذا الجانب أو ذاك · ولكنى لا أستطيع الآن أشير للحقائق التاريخية الكبرى التى استقرت فى أذهان العالمين عما يجرى فى الهند ··· فقد اهتزت الانسانية فى يوم من الايام لهذه المذابح الفظيعة التى قام بها السيخ مع مسلمى مدينة نيو دلهى فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ وقد كان غاندى قديس الهند هو أول من اهتز لهذه المذابح التى تلطخ تاريخ هذه الحقبة من حياة الهند ، فهرع بشخصه الى نيو دلهى لوضع

حد لهذه المذابح ولكن كلمات القديس وصلواته لم تنفع هذه المرة فى اطفاء هذه النيران المشتعلة، نيران الحقد المجنونة المسعورة التى كانت تنادى بابادة المسلمين وافنائهم فى نيو دلهى وما حولها ، ولكن روح غاندى العظيمة ما كانت لتتراجع عن نصرة قضية الحق والانسانية فلما لم تجد الكلمات ولا الصلوات قدم حياته كلها على مذبح اطفاء هذه الفتنة ، فعندما اغتال هذا الهندى المجنون المهاتما غاندى فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٤٨ وهو منهمك فى صلواته ، عندما سال دماء المهاتما غاندى قديس الهند على أرض الهند بيد هندوكى متهوس ٠٠٠ هنا وهنا فقط أدرك الشعب الهندى عمق هذه الهوة التى تردى فيها بسماحه بقيام هذه المذابح بين ظهرانيه، أدرك الشعب الهندى ان اطلاق روح الشر من عقالها ، روح الجنون والعنف والوحشية تحت اسم الدين أو الوطنية ، أو أى اسم من الاسماء ، هو بمثابة فتح أبواب الجحيم لبنى الانسان أجمعين، فاستيقظوا ولا أقول بعد فوات الوقت، واختفت الى الابد من حياة الهند ـ كما نرجو جميعا ـ هذه الروح المجنونة الشريرة التى انطلقت عشية التقسيم ، روح العنف والقتل والتحريق والتدمير ٠ ويؤمن المسيحيون بأن المسيح عيسى بن مريم قد كفر بدمه عن خطايا البشر فعادوا أطهارا أبرياء كما ولدتهم أمهاتهم ٠

وقصة المسيح ورفعه الى الصليب قصة قديمة حدثت منذ ألفى سنة تقريبا وقد تختلف حولها آراء بعض المسيحيين أنفسهم ولكن قصة غاندى قصة حديثة عاصرناها جميعا وشهدناها بأنفسنا، ويشهد عليها مئات الملايين فان استشهاد غاندى لم ينقذ أرواح عشرات الملايين من المسلمين فى الهند فحسب بل وجعل أمنهم وسلامتهم فى الهند الى الابد هو رسالة ودين فى عنق كل هندى بعد أن استشهد غاندى فى هذا السبيل ٠٠ لم يقف استشهاد غاندى هذا عند هذا الحد فقط بل انه أصبح كفارة عن كل هذه الآثام والفظائع التى ارتكبها السيخ وشرذمة من مهووسى المتعصبين من الهندوس فاذا قال قائل لقد قتل الهندوس من المسلمين وذبحوا وفتكوا، جاء الجواب على الفور، ولقد ذبح غاندى بنفس اليد الآثمة التى فتكت بالمسلمين ، فالامر اذن لم

يكن أمر تدبير أو تفكير ، والامر لم ينبعث عن عقائد راسخة او طبيعة **متأصلة وانما هي ريح .. ريح مجنونة هبت على الهند واعصار من الشر خضبت أرض الهند بدم الاخوان والاشقاء** ، ولم ترتد حتى أهرقت دم قديس الهند الاكبر . لقد عاشت الهند قرونا بل ألوفا من السنين لا تعرف التعصب الدينى وطبيعة الديانة الهندية وتعاليمها لا تفرق بين دين ودين . أو بين رسول ورسول وكتاب وآخر ، الديانة الهندية كما سنرى فى فصل مقبل تقوم على فكرة وحدة الوجود واعتبار العالم كله وحدة واحدة بكل ما فيه من تباين ظاهرى . وطبيعة مثل هذا الايمان أن يتسع لكل طريق ولكل تفسير ولكل مذهب .

وحسبنا ان نقتبس مرة أخرى من كتاب « الجيتا المقدس » قوله الرائع الجدير بأن يكتب بماء الذهب وأن يعلق فى كل معابد وهياكل ومساجد الرب على السواء :

«ليست النجاة منوطة بعقائد وتقاليد قديمة أو حديثة ، بل انما ينالها الانسان اذا طهر نفسه ، وتحرر من الرغبة والرهبة ، ووقف حياته على مرضاة الله . ولا يخدعنك اختلاف الشرائع وتعدد الطقوس، فان الله يقول، أى طريق يسلكه عبدى الى، فانه يجدنى فيه وكما يصل الواقفون على الدائرة المدورة الى وسطها من طرق شتى كذلك يصل السالكون الى الله وان اختلفت مسالكهم وتعددت مذاهبهم فعلى العاقل ان لا يزعج بال قليلى العقول بتقبيح مذاهبهم ، ما داموا مسددين فى أعمالهم ، محسنين فى سلوكهم ، بل يتركهم على خيرهم ولا يشككهم.»

هذه هى تعاليم الديانة الهندوكية بل ان الديانة الهندوكية كلها كما قدمنا تقوم على هذا الجوهر الذى لا يرى فى كل الخلافات والاعراض الظاهرة سوى مظاهر لحقيقة واحدة . ومن هنا لم تعرف الهند التعصب الدينى فى كل حياتها القديمة واتسعت لكل الاديان وكل الآراء وكل المذاهب . وعندما دخلها الاسلام لم يشذ عن هذه القاعدة ـ قد يكون بعض الهنود قد نظروا للمسلمين نظرتهم لغزاة فاتحين فكرهوهم من هذه الناحية أو حاولوا أن يقاوموهم ولكن ذلك لم يقع على أساس الدين أو التعصب الدينى بحال من



الراقص الهندي المشهور « رام جوبال » مع الراقصة المعروفة «شيفانتي» في رقصة

الاحوال ، وليس أدل على ذلك من أن أزهر مرحلة في حياة الهند الحضارية والثقافية ، هي هـذه الفترة التي تم فيها التزاوج بين الحضارة الاسـلامية والحضارة الهندية تحت حكم أباطرة المغول، والذين حكموا الهند لحسـاب الهند ، ولا يزال الهنود حتى اليـوم وفي عهـد الاستقلال يعتدون بحكامهم ويفتخـرون بحـكمهم ويحتفلون وسيظلـون يحتفلون بذكراهم الى الابد بل ان من الهنـود من يفـوق المسلمين في الاعتداد بحياة « أكبر » امبراطور الهند المسلم والذي حاول في أيامه أن يوحد الهند في دين واحد ٠

كان ملوك الهند المسلمون يتخذون لهم زوجات هندوكيات، وكانت العائلة الهندية الواحدة يوجد بين ابنائها من هو مسلم ومن هو هندوكي أو بوذي ولا يشعر الجميـع باى فارق بين مختلف هـذه الاديان ٠

وعلى هذه الوتيرة عاش المسلمون في الهند جنبا الى جنب أديانها الاخرى لا يعرفون التعصب ، ولم يقتتلوا في يوم من الايام أو يحتربوا ٠٠٠ وانما بدأت هذه اللعنة بعد دخول الانجليز الى الهند

والذين طبقوا سياستهم فى هذه الناحية ، سياسة التفريق ، وايقاد نيران العداوة والبغضاء بين مختلف عناصر الهند ليستتب لهم الامر وينفردوا بالسلطان ٠

وقــد استحــوز الانجليز على الهنــد من يــد حــكام من المسلمين ، وكان المسلمون هم الذين قاوموهم عند احتلال البلاد كما حدث بالنسبة لسلطان ميسور وسلطان تيبو الذى خاض ضدهم معارك هائلة وكاد أن يقهر جيوشهم فيها ، وعندماقامت الثورة الكبرى ضد الانجليز فى سنة ١٨٥٧ لاجلائهم عن البلاد كان المسلمون هم أصحاب الصولة والجولة فى هذه الثورة الكبرى فكان طبيعيا ان ينقم عليهم الانجليز وان يجعلوا همهم الاول فى اذلالهم واضعافهم ٠ فحالوا بينهم وبين الوظائف أو المناصب العامة ، وحالوا بينهم وبين التعليم، وبين التطور الاقتصادى حتى أصبح المسلمون فى الهند فى مؤخرة عناصرها ولم يكن هناك من هو أشد تخلفا منهم سوى طائفة المنبوذين وعمل الانجليز على تقديم الهنود على المسلمين فى كل شىء ولكن الهنود لم يلبثوا ان قويت شوكتهم وارتفعت موجتهم وبدأوا كفاحهم السياسى لتحسين أحوالهم وللاستزادة من السلطان والقوة ٠

فرأى الانجليز أن يعودوا لتقوية جانب المسلمين ليستعينوا بهم ضد الهندوكيين وبدأ الانجليز ينفخون فى روح العداوة بين الطائفتين ويصوغون من التشريعات والتعليمات واللوائح ما يخلد الخلافات بين المسلمين والهندوس ومما يصبها في قوالب حديدية لا يعتريهــا الضعف والوهن ٠

ونحن فى مصر نعرف هذه القصة جيدا ، وكيف سعى الانجليز لتوسيع الهوة بين المسلمين والاقباط ٠ فالاقباط لا يجب أن تزيد نسبتهم فى هذه الوظائف عن كذا لئلا يغضب المسلمون ٠ وهذا المنصب لا يجب أن يتولاه الاقباط ، وهذا النوع من الوظائف يجب أن يكون قاصرا على الاقباط ، وهكذا يحرجون صدور الاقباط ضد المسلمين، والمسلمين ضد الاقباط فى كل خطوة وفى كل مناسبة ، وهذا هو ما نجح الانجليز فى تحقيقه طوال مائة سنة فى الهند ، وهذا

هو السلاح الوحيد الذى مكن للانجليز فى الهند ، ومكن ويمكن لكل مستعمر فى حكم أى شعب من الشعوب ، وانى أكتب هذه السطور الآن ومأساة الحكم الفرنسى فى مراكش فى أوجها ، فقد ألبت فرنسا عناصر البربر ضد سلطان مراكش الذى كان ينازع نفوذها وغدا عندما يقوى نفوذ البربر ويحاولون مناقشة فرنسا الحساب فسوف تعمد من جديد لترجيح العنصر العربى لتستعين به على كسر شوكة البربر وهكذا دواليك حتى يدرك العنصران العرب والبربر ان لا نجاة لهم ولا أمان ولا سلام ولا حرية الا فى الاتحاد وطرح هذه العصبية الهمجية ، عصبية الجاهلية ، ومقاتلة المستعمر الاجنبى يدا واحدة ٠

جهاد غاندى لتوحيد الصفوف

ونعود الى قضية الهند ، ونعود مرة أخرى الى بطلها العظيم غاندى لقد اكتشف من وقت مبكر جدا ان لا أمل للهند فى التطور ، فضلا عن التحرر الا اذا سعى لمؤاخاة المسلمين والهندوس والنظر اليهما كشعب واحد وأمة واحدة٠ وقد بدأ غاندى هذه السياسة منذ عهد مبكر أى عقب الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ حيث كان للمسلمين مطلب خاص وهو تأييد الخلافة الاسلامية فى تركيا والمحافظة على أملاكها ، فأسرع غاندى الى تأييد هذا المطلب بدون قيد أو شرط لمجرد أنه طلب خاص بمسلمى الهند الذين هم جزء من الشعب الهندى ، وهو مطلب ينطوى فى ذاته على حق، ولذلك فقد أيده غاندى بكل قلبه وحمل المؤتمر الهندى



غاندى - محام فى جنوب افريقيا

على أن يؤيد هذا المطلب الاسلامى · وغنى عن البيان ان هذا الموقف من غاندى قد لقى معارضة شديدة من متعصبى الهنود ، ولكن غاندى كان قد آلى على نفسه ان يعتبر نفسه اماما للهند كلها بمسلميهـا وهندوكيها ومسيحييها ، وان لا يعبأ بأى صعوبة تعترض سبيله فى تحقيق هذه الغاية وهى توحيد الهند وتحريرها · وكان لهـذا الموقف من ناحية غاندى صداه فى صفوف المسلمين فبادر زعماؤهم فى ذلك الوقت وعلى رأسهم محمد على وشوكت على ، بوضع أيديهم فى يده وتعاونوا مع المؤتمر على محاربة الانجليز ومقاومة سياستهم · وبدأ غاندى زعامته النادرة المثال فراح فى صلاته العامة يسبقها بتلاوة بعض آيات من القرآن ، وآيات أخرى من الانجيل ، ثم آيات من الجيتا أحد كتب الهند المقدسة ·

ويتصور أقوام من غلاة المتطرفين والمتعصبين المسلمين الـذين لا يفهمون دينهم حق الفهم ، ان هذا التصرف من ناحية غاندى لم يكن ينطوى على اخلاص ، وان الرجل كان يفعل ذلك لحرصه على سيادة الديانة الهندوكية التى ينتمى اليها فراح يتقرب من المسلمين بهـذا الاسلوب ليضمن سكوتهم وتعاونهم معه على تحقيق أغراضه · ولو كان ذلك حقيقة موقف غاندى لما كان فى ذلك ما يشينه ، فان يسعى الانسان لرفعة دينه عن طريق احترام الاديان الاخرى والتقرب الى معتنقيها وان يسعى جاهدا لرأب الصدع بين أبناء الوطن الواحد هو آية فخار المجاهد · ولكن الذى لا شك فيه ان غاندى لم يكن بتصرفه هذا يتصرف تصرف السياسى وانما كان يتصرف تصرف الرجـل الذى يؤمن بأن الحق وحدة لا تتجزء ، وان الاديان وهى تهدف كلها الى الحق، لا يمكن الا أن تكون حقيقة واحدة · وهذا الايمان فى نفس غاندى ليس جديدا ولا هو بمستغرب سواء بالنسبة لكتب الهنـد المقدسة أو بالنسبة لتاريخها · فقد أثبتنا فيما تقدم نص كتـاب «الجيتا» الذى يدعو معتنقيه الى أن كل الطرق تؤدى الى الله ، وانه لا ينبغى التشاحن أو التباغض بين المذاهب المختلفة ، فذكرنا ان

الديانة الهندوكية لا تحوى نصوصا أو تصورا يتعارض مع الدعوى الى الله بأى سبيل من السبل ٠

وقد ظهرت فى الهند دائما هذه المحاولات المتكررة للتوحيد بين مختلف ديانات الهند ، وقد أشرنا فيما سبق الى الامبراطور «أكبر» أعظم أباطرة الهند المغول المسلمين، وكيف فكر فى توحيد الاديان الهندية فى دين واحد ٠ بل ان ديانة السيخ التى يدينون بها والتى رسمها لهم « نانك » زعيمهم الاكبر ، أو نبيهم ورسولهم كما يؤمنون به ، ليست الا مزيجاً من الاسلام والهندوكية وقد حج «نانك» الى مكة المكرمة فى أيامه ٠

فليس هناك ما يبرر التشكك لحظة فى اخلاص غاندى للايمان الذى دعى اليه وهو احترام الاديان كلها ، وهذا الذى كان يقوم به غاندى من تلاوة القرآن الى جوار الجيتا المقدسة لم يكن ضربا من التمثيل ، أو الخداع ٠ فالرجل لم يكن رجل حكم ولا سلطان ولم يلى الوزارة أو يطلب اعتلائها ، وقد كان معبود الهند كلها ، والخدع والحيل هى من شيم رجال السياسة والسلطان ، وليست من سمات القديسين ورجال الله، ولقد برهن غاندى فى الحقبة الاخيرة من حياته على ان اخلاصه للمسلمين ولديانة المسلمين وتقديسه للقرآن كان فوق كل شك وريبة ، ففى حوادث نيو دلهى الدامية التى سبقت الاشارة اليها تقدم لغاندى شاب مسلم وقدم له نسخة من القرآن وقد حرق نصفها ، ثم انصرف وهو يبكى دون أن يفتح فاه بكلمة ، فاذاع غاندى بيانا ذكر فيه هذه الواقعة مسجلا انها تجر العار على مرتكبى هذه الفعلة الدنيئة ، وان هذا الذى يعتدى على القرآن انما يعتدى على دينه هو أيا كان هذا الدين ، والذى يحرق القرآن انما يحرق كتابه المقدس أيا كان هذا الكتاب ٠

وأخيرا لقد صرع غاندى ودفع حياته ثمنا لدفاعه عن المسلمين،وقد حذر غاندى قبل ذهابه الى نيو دلهى ، وطلب منه أن لا يخرج بنفسه فى هذه الفتنة الهوجاء ، ولكن غاندى أبى أن يقلل من القيام بواجبه

حتى آخر لحظة بل قال بالفعل انه اذا لم يكن ثمة سبيل لانقاذ المسلمين الا بتضحية نفسه فهو على استعداد لهذه التضحية .... ولقد كان .

وقد فعل غاندى ذلك فى الوقت الذى كان انفصال الباكستان عن الهند قد أصبح حقيقة مقررة وان المسلمين قد أصبحوا دولة أخرى مستقلة عن الهند كل الاستقلال ... فلو ان غاندى صانع المسلمين سياسة ، أو دهاء كما يحلو لبعض ضعيفى العقول أن يزعموا ، فقد كانت هذه هى الساعة التى يسقط فيها عن وجه غاندى القناع بعد ان فشلت مساعيه فى الابقاء على وحدة الهند .. ولكن غاندى لم يكن كاذبا أو مخادعا ، وانما كان قديسا ، كان روحا عظيمة ينبغى لبنى البشر أن يحنوا له الرؤوس فى كل زمان ومكان . فهذا الجسد النحيل العارى الذى لم يكن يتغذى بغير بضع ثمرات وكسرات من الخبز وقليل من لبن الماعز ، كان يضم بين جوانحه الدنيا كلها ، كان يسع الشعوب والاديان ، والاجناس . كان ثمرة ناضجة للفلسفة الهندية والتصوف الهندى والروح الهندية السامية .

لا خوف على مسلمى الهند

ولذلك فلا عجب اذا كان المسلمون الذين آثروا البقاء فى الهند لم تعد لهم قضية، فمنهم الوزراء والسفراء والاساتذة وكبار رجال الجيش وكبار الموظفين ، ولا عجب اذا كان نهرو تلميذ غاندى يتابع سياسة زعيمه فى هذه الناحية، ولذلك فعندما زرت الهند لم يستوقفنى أى شذوذ بالنسبة للمسلمين هناك ، بل فوجئت بأن كثيرا ممن يتحدثون أو يتعاملون معى هم من المسلمين الذين ينطلقون فى الحياة غير شاعرين بنقص أو حيف أو جور . هذه الجمهرة من الخدم فى قاعة الطعام بالفندق هم من المسلمين، وقد قيل لى ان هذا شأنهم فى سائر الفنادق الكبرى ، وقد لمست ذلك بنفسى فى رانجون نفسها وذلك لاشتهار المسلمين بالنظافة والامانة . وعندما طفنا فى أرجاء كلكتا وزرنا سوقها لفت نظرى سوق الجزارين الضخمة وقال لى صديقى ومرافقى كل هؤلاء الجزارين من المسلمين بطبيعة الحـال ،

لان الهندوكيين لا يجيزون الذبح ويحرمونه ، فأصبحت هذه المهنة قاصرة على المسلمين ، وكلما ركبنا أحد التكسيات اكتشفنا ان السائق مسلما فى غالب الاحوال، وعندما سافرت الى مدينة بنارس مدينة الهند المقدسة كانت مفاجأة شديدة الوقع على ان اكتشف ان غالبية الادلاء والمرشدين الذين يقودون السياح لمشاهدة المعابد والطقوس الهندية من المسلمين ، ولقد التف حولى ستة منهم فى الفندق الذى نزلت فيه وقد اغتبطوا عندما اكتشفوا اننى مسلم ، وراحوا يتناقشون حولى فى مسائل من صميم الاسلام وتفاصيله ، وسرعان ما تبينت انهم يمثلون ميولا مختلفة فالبعض منهم مجدد ، والبعض منهم متزمت، والبعض منهم يوصف بأنه وهابى يدين بالوهابية والبعض منهم يفتخر بأنه سنى ، ووجدتهم يفهمون الدين كأى مسلم مثقف آخر .

ولقد حرصت على أن أشير الى دور المسلمين فى هذه الاعمال الشعبية كالخدمة وقيادة السيارات والارشاد ، لانه كثيرا ما قيل لنا ان سياسة المؤتمر أن يضع فى منصب ظاهر وزيرا من الوزراء المسلمين ليخدع الناس ويغرر بهم ، أما طوائف الشعب الاخرى ففقيرة ومضطهدة ، وما أتيح لى أن أراه فى الهند من المسلمين الذين حادثونى فى طريقى قد أظهر لى عدم صحة هذه الفرية .

والخلاصة اننى لم ألحظ أى مظهر من مظاهر هذه الفتنة التى انتشرت فى الهند من قبل ووجدت المسلمين بها صغارا أو كبارا يعيشون فى أمن وسلام مع اخوانهم الهنود ...

وعندما وصلت الى نيو دلهى وزرت مدينة آجرا كمل يقينى واقتناعى بأن لا خوف على المسلمين فى الهند أو من الهند بسبب الدين فى أى يوم من الايام ، فقد وجدت المساجد مفتوحة كأروع ما تكون المساجد، بل ان نيو دلهى كلها ليس فيها مكان واحدا أروع من المسجد الكبير الذى يتوج هامتها ، اذ يقع على ربوة عالية فى شموخ وتعالى قل ان يجد الانسان لها مثيلا فى أى مسجد آخر فى أنحاء العالمين، ويضيق المسجد بالمسلمين فى أيام الجمع والاعياد ، وهو بعد ذلك مقصد

السياح والزوار من جميع أنحاء العالم حيث يروا فيه وفى باقى الآثار الاسلامية أروع ما تضمه الهند من آثار خالدات .

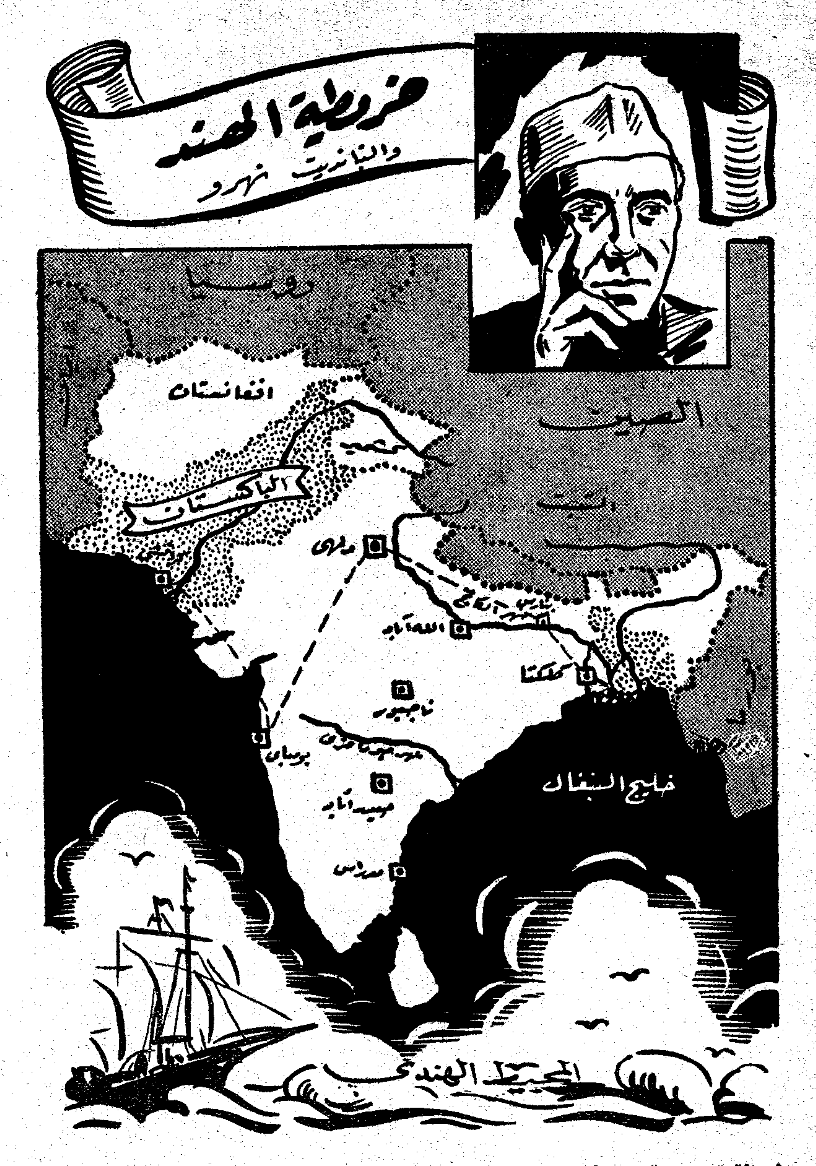
ولقد دعيت فى نيو دلهى لتناول الغداء من السيد صادق المجددى سفير الافغان السابق فى مصر فقصدت اليه فى الخلوة الخاصة به . فى حى اسلامى بحت ، فتصورت نفسى فى مكة أو المدينة ولم أر حولى الا وجوها مشرقة ونفوسا مقبلة على مختلف أعمالها ، فهـذا صائغ وهذا حائك وهذا تاجر وليس هناك أثر أو ظل لهـذه الجائحة التى اجتاحت نيو دلهى عشية التقسيم فى سبتمبر سنة ١٩٤٧.

وهكذا لم تذهب تضحية غاندى من أجل المسلمين عبثا أو هبـاء فقد أمنهم كما ذكرت من قبل فى الهند المستقلة الى الابد، ولا جدال عندى الآن ان هذه الروح الشريرة التى هبت على الهند عشية التقسيم لم تكن الا بقية من بقايا السموم التى نفثها الاستعمار الانجليزى فى بنية الشعب الهندى طوال قرن ونصف من الزمان . لقد كان هذا الذى حدث بمثابة عملية « حجامة » استفاق جسد الهند بعدهـا من حمى الاستعمار الانجليزى وشفى الى الابد من الروح الخبيثة التى كانت قد اختلطت به .

منطقة المنصورة التعليمية
قلم شئون الطلبة والامتحانات

تعلن منطقة المنصورة التعليمية انـها قررت اعدام جميع الشهادات الابتدائية القديمة الموجودة بها التى يكون قد مضى على وجودها اكثر من عشر سنوات (اى شهادات سنة ١٩٤٣ وسيتم اعـــدام الشهادات المذكورة فى أول يناير ســـنة ٩١٥٤ وقد توخت المنطقة من اعطاء هذه المهلة الطويلة تمكـــين اصحاب هـــذه الشهادات من تسلمها وذلك اما بالحضور شخصيا الى المنطقة بالمنصورة لتسلمها او طلب تحويلها الى اقرب مدرسة اميرية لمقر لمقر الطالب على ان يوضح فى طلب التحويل ما يأتى (اسم الطالب ــ سنة النجاح والدور ــ اسم المدرسة التى تقدم منها ــ اسم المدرسة المطلوب تحويل الشهادة اليها ــ عنوان الطالب الحالى)

٦٠٥١



خريطة توضيحية تبين أهم المدن الهندية ـ وعليها خط سير رحلة المؤلف

الفصل الثالث
فى كلكتا

أعد لى صديقى الاستاذ مختـــار زكى وحـــرمه برنامج زياراتى ومشاهداتى فى كلكتا وقد حان الوقت لاذكر حرم الاستاذ مختار زكى بالخير، فهى واحدة من سيدات مصر اللواتى يشرفن جنسهن بل يشرفن مصر كلها ، فقد كانت طالبة فى انجلترا وحصـــلت على أرقى الشهادات فى الآداب والفنون ، وعملت فى خلال ذلك فى الســفارة المصرية بلندن كموظفة بها ، فكانت تؤدى عملها بجدارة حتى اذا دعتها الحياة الزوجية لبت النداء وضحت بوظيفتها ومرتبها من أجل زوجها الذى راحت تتبعه فى عمله الى حيث يدعوه الواجب ... ومع انها الام الكاملة بالنسبة لزوجها وطفلتها ، فهى العالمة التى تواصل دراسة علـومها لتعد فيها رسـالة تظفـر بهـا بالدكتـوراه ، عـــن الحضـــارة الفارســـية وتأثيرهـــا على الحضـــارة الاسلامية ، أو شيئا حول ذلك أو يقرب من ذلك . ولذلك فقد وجدت فى كلكتا وفى الهند بصفة عامة ما يتصل بثقافتها وموضوع دراستها، فعندما أعد لى الاستاذ مختار زكى برنامج الزيارة الحافل لكلكتا ، اشتركت حرمه فى وضع هذا البرنامج ، بل تولت هى قيادتنا فى زيارة بعض المنشئات والمؤسسات وكانت المؤسسة الاولى التى أصرت على أن نبدأ بزيارتها هى مكتبة كلكتا . وتقع مكتبة كلكتا فى قصر كبير كان يقيم فيه الحكام الانجليز فى فترة من الفترات ، فهـــو بناء فاخر يشرف أى مدينة من مدن الدنيا العظمى وفى هذا البناء وفى

بهوه الكبير الرائع والذى كانت تقام فيه حفلات الاستقبال الكبرى ـ صفت الكتب من الارض حتى سماء المكان ، وقسـمت الى أجـزاء يحمل كل جزء عنوانه ، ووضع فى كل قسم المناضد وحولها الكراسى حيث يجلس طلاب الاطلاع على هذه الكتب • وكان النور ساطعا يملأ أرجاء المكان، والسكون مخيم، وقد انصرف كل من فى البهو الى البحث والدرس •

تذكار الملكة فيكتوريا

ومنذ وصلت الى كلكتا ، وأنا أمر في روحتى وغدوتى على أعظم ميادين كلكتا وهو ميدان فسيح لا يكاد يحده الطرف ، وهو شيء لا مثيل له الا فى مدن الهند حيث أنشأ الانجليز هذه الميادين الفسيحة جدا، لتكون بمثابة حد فاصـل بين أحيـائهم وبين باقى احيـاء المدينة وكان الهندى المسكين لا يستطيع أن يقترب من هذه الاماكن والا عرض نفسه للعقاب ••• وفى هذا الميدان الشاسـع المترامى الاطراف أقيمت الحدائق والمتنزهات أو ساحات الالعاب الرياضية ، حيث تجرى ألعاب الكريكيت وكرة القدم على أوسع نطاق ، ولقد أصبحت كل هذه الميادين الرائعة وهذه الساحات الجميلة وقفا على الهنود الذين كانوا يملؤون هذه الساحات، ومباريات الكريكيت تجرى على قدم وساق، ومباريات كرة القدم يزدحم عشرات الالوف لمشاهدتها ••• وكل ذلك يجرى فى ميدان عام وسط مدينة كلكتا ويزين هذا الميدان بناء شامخ مشمخر أطلق عليه اسم «تذكار فيكتوريا» ويستوقف الانسان من هذا البناء قبته الشاهقة الضخمة ولونه الابيض الناصع الذى يتألق تحت وهج الشمس ، وذلك ان البناء كله من الداخـل والخارج ليس الا كتلة من المرمر ، ولقد أدركت فيما بعد ما الذى حفز الانجليز على اقامة هذا البناء على هذه الصورة من المرمر، وأدركت كيف فشلوا فيما أرادوه بل كيف سجلوا على أنفسهم انهم أقزام الى جوار هؤلاء العمالقة •

حاول الانجليـز أن يجعـلوا من تـذكار فيـكتوريا شـيئا

يقرب من « التاج محل » ولكن هيهات وشتان ••• وتذكار فيكتوريا لا يروع الانسان الا قبل أن تتاحله فرصة زيارة التاج محل••فاذا زار التاج محل لم يلبث أن يسخر منمحاولة الانجليز ويدرك الفشل الذى ترديوا فيه ••• أجل ان كلا البنائين من المرمر ولكن الفارق بينهما كالفارق بين الفن الاصيل والتقليد الهزيل ••

أقيم هذا التذكار للملكة فيكتوريا بمناسبة تنصيبها امبراطورة على الهند • وهو اليوم بمثابة متحف يضم آثار الملكة فيكتوريا المتصلة بالهند كملابس التتويج ، والمراسيم الامبراطورية والمراسلات التى تبادلتها فيكتوريا مع نوابها فى الهند • والى جوار ذلك مجموعة من الصور الزيتية الرائعة والتماثيل لحكام الهند من الانجليز على التعاقب ، وصور ضخمة لمجالس أباطرة المغول المسلمين الذين حكموا الهند قبل دخول الانجليز ، وصور مواكبهم الرائعة ، والافيال المكسوة بالخز والديباج والمحملة بأثقال الجواهر واللؤلؤ ، تختال بالامبراطـور الراكب فوقها •

ويضم المتحف فوق ذلك مجموعة رائعة ونادرة من الصور التى رسمت فى العهد المغولى ، وقد سرنى أن أعلم ان جامعتنا المصرية قد أوفدت أحد خريجيها لدراسة الفن المغولى فى كلكتا ، وقد تولى لنا شرح هذه الصور صديق لا أذكر اسمه الآن •

وفن الرسم المغولى قد أصبح فرعا من فنون الرسم العالمية ، وقد اهتم به الاوروبيون كاهتمامهم بكل ما هو شرقى وأنشأوا له المدارس وتخصصوا فى دراسته ، وتهافتت مكتبات أوربا ومتاحفها على اقتناء هذه الصور ، وهى فى أغلبها صور قد رسمت لتؤلف صفحات من الكتب سواء منها الدينى أو التاريخى أو الادبى • ومع صغر حجم هذه الصور التى لا تتجاوز صحيفة من كتاب صغير ، فان الانسان ليذهل فى كثير من الاحيان لدقة المصور وهو يرسم جيشا بأكمله بمختلف أسلحته وفرقه ، وسترى على كل وجه ملامح تغاير ملامح الوجه الآخر بل سترى على كل وجه تعبيرا ينم بدقة عما يخالج نفس صاحبه من مشاعر ، وسترى أدق الفروق فى ملابس الجند حسب رتبهم ،

وفى استطاعتك أن تضع الصورة تحت مجهر لتدرس أشخاص الرسم واحدا واحدا لترى العجب العجاب من التفاصيل الدقيقة التى لم تفت الرسام فى ذلك العهد ...



متحف ومعرض ومعبد وحديقة

وقصدنا متحف المدينة حيث آثارها القديمة ، فكانت حجراته مغلقة بسبب احدى العطلات ، ولكن كان من الواضح ان المتحف لا يحوى شيئا كبيرا ... وقد وجدنا فى فنائه الخارجى بعض تماثيل وأحجار لم يكن فيها شىء يستوقف النظر ، أو يستحق الذكر ، وكان ذلك بمثابة ارهاص لما سأخرج به من الهند من فكرة عن الآثار . فالهند ليست بلد آثار قديمة . وليست بلد معابد . لقدكنت أتخيل اننى سأصادف من الاثار القديمة ما يأخذ بلبى ، كهذه الآثار التى تملأ بلادنا ، أو كتلك الآثار التى تراها فى اليونان أو روما . ولكنى لم أر فى الهند شيئا من ذلك ... حقا ستصادفنى بعض حفريات تتصل ببوذا وعبادته فى بلدة سرنات الى جوار بنارس ، وفى كتب السياحة عن الهند اشارة لبعض المعابد والقصور هنا وهناك ولكن ذلك شىء غير جدير بالذكر بالنسبة الى اتساع رقعة الهند وضخامتها وقدم تاريخها ، فان هذه المنشآت لا تتجاوز كلها بضعة قرون . وواضح أن مرد ذلك طبيعة الجو التى لا تسمح ببقاء المبانى طويلا . فالرطوبة

الدائمة والامطار التى تواصل السقوط ستة أشهر فى السنة بصورة لا نستطيع نحن المصريين أن نتصورها ، والتى اشتهرت فى كتب الجغرافيا باسم الامطار الموسمية والتى تجىء بها الرياح الموسمية وتجعل الهند من أغزر مناطق العالم بالامطار .

لا شك ان لذلك الاثر الاكبر فى عدم الابقاء على آثار الهند القديمة الا القليل الذى لا يؤبه به أو بالاحرى لا يتناسب مع ما كان ينبغى ان يكون لهذا البلد من آثار .

على أن لديانة الهنود دخل من ناحية أخرى فى عدم المحافظة على الآثار ـ فديانة الهنود وتقاليدهم وطابعهم يتجه نحو محو هـــذه الآثار لا الابقاء عليها ، فهم يحرقون الميت بعد موته بل ويحرقون معه كل مخلفاته لو استطاعوا الى ذلك سبيلا وقد كانوا الى عهد قريب يحرقون زوجة الميت معه، واذا كان المصريون القدماء يؤمنون بضرورة المحافظة على الجسد لامكان أن يبعث من جديد ، فالهنود على النقيض من هذه العقيدة فهم يحرقون الميت بل ويقذفون رماده فى نهر الكنج حيث لا يبعث من جديد . فالهنود يؤمنون بتقمص الارواح ، بل ان فكرة التقمص أو تناسخ الارواح هذه هى جوهر ولب الديانة الهندية، فالكائن الحى اذا مات تقمصت روحه فى صورة جديدة وقد تكون صورة انسان أو حيوان ، وكذلك الحيوان اذا مات تقمصت روحه فى صورة جديدة ، وقد تكون صورة انسان ، وهكذا الى ما لا نهاية ، ولما كان هذا التناسخ المستمر الى ما لا نهاية هو لعنة من اللعنات ويجب وضع حد له ، فقد اتجهت جهود الفلسفة الهندية والديانة البوذية نحو وضع حد لهذا التناسخ . وكان من بين ما قيل وما يهفو اليــه الناس هو هذا الذى أشرنا اليه من قبل وهو حرق الجثة ورمى بقاياها فى نهر الكنج المقدس حتى يقطع هذه السلسلة .

واذا كانت هذه الفكرة المسيطرة على عقول الهنود وأرواحهم ، فانهم يصبحون بطبيعتهم غير حريصين على المحافظة على الآثار ، ولذلك فان الهند من هذه الناحية خلو من الآثار القديمة الرائعة، الا ما كان من

صنع المسلمين فى العهد المغولى • بل ان الهند خلو كذلك من المعابد الضخمة على الصورة التى كان الانسان يتخيلها عليها • ففى أربع مدن كبرى زرتها لم أجد بها شيئا يستحق الذكر • وليس سوى المعابد أو بالاحرى المساجد الاسلامية هى التى تؤلف تراث الهند من المعابد الرائعة ••• وهناك بعض معابد للبوذية رأيت بعضها وهو حديث الانشاء ولا قيمة له ••• وقد يكون هناك معبد آخر أو بضعة معابد فى أنحاء من الهند وخاصة فى الجنوب وفى الوسط لم تتح لى زيارتها ولكن هذه المعابد لا تمت الى الديانة الهندية بل للديانة البوذية أو الجيتية ••• وكيفما كان الامر فلم أجد فى الهند معبدا أو هيكلا كهذا الذى رأيته فى رانجون عاصمة بورما والذى تحدثت عنه فى كتابى السابق(١)، ولم يجد الانسان فيها أمثال هذه المعابد القديمة والهياكل أو هذه الكنائس والكتدرائيات التى تملأ أنحاء أوربا أو المساجد التى تملأ العالم الاسلامى ومنها الهند نفسها•• ان الديانة الهندية لا تقوم على العبادة، أى أن الديانة الهندية تعبد هذا الوجود ••• تعبد الماء والهواء والنار والانسان والنور والظلام والكائنات •• هذا الوجود كله هو الرب المعبود ، وما الانسان نفسه الا هيكلا لهذا الرب، بل لقد حذرت كتب الفيدا المقدسة من اقامة صور أو معابد للرب، فلم يحتاج الهنود لاقامة الهياكل والمعابد على الصورة التى فعلتها بقية الامم ، وبقية الاديان الاخرى ، ولذلك فقد كانت مفاجأة كبرى لى عندما قلت لصاحبى مختار زكى أريد أن أزور المعابد الهندية ، فأنا شديد الرغبة فى دراسة الديانة الهندية بل ان أحد أسباب لهفتى على زيارة الهند هو الاحاطة بدينها ، هذا الدين العجيب الذى استمد منه كثير من فلاسفة أوربا فلسفتهم، فلم يستطع أن يقودنى بسهولة الى طلبتى ، لان كلكتا ليست بها معابد للديانة الهندية نفسها ، وانما بها معبد للديانة الجينية وهى فرع من الديانة الهندية كالديانة البوذية ، ولقد زرت أحد هذه المعابد فوجدته — دون أن أحظى بتفسير — شديد الزحام ، وأناس

(١) يقظة العملاق

يروحون وآخرون يجيئون.. واقتربنا من المكان المقدس ولكن ذلك لم يترك فى نفسى أثر من أى نفوع كان، وقد علمت فيما بعد ان مدينة كلكتا بها معبد للالهة « كالى » ولكن لم يتح لى زيارته .

فى حديقة الحيــوان

وحرصت على زيارة حديقة الحيوان بكلكتا ، وحدائق الحيوانات صورة متكررة فى كل بلد باستثناء حديقة حيوان برلين والتى اعتبرها شيئا فذا لا مثيل له فى العالم كله ، فهى ليست حديقة حيوانات بقدر ما هى معهد علمى ومدرسة لاثبات نظرية النشوء والارتقاء . فالحيوانات معروضة فيها بطريقة علمية ، تظهر تسلسل الاحيــاء وتطورها وكيف بدأت فى قاع البحر كهدية الاسفنج ، ثم انفصلت فى صورة الاسماك ، ثم تتطورت الاسماك فأصبح منها من يعيش على البر والماء فى نفس الوقت ، ثم استقر بعضها على الارض بطريقة نهائية وكيف تطورت هذه الكائنات حتى وصلت الى الحيوانات الراقية ... كل ذلك يراه الانسان مشروحا ومرتبا لا يحتاج فيه الى محاضرات أو مناظرات وما عليه الا أن يرى الانواع نوعا نوعا بعد الآخر ... وذلك بالاضافة الى محاولة ثانية ، وهى وضع الحيوانات فى مثــل الجو الذى تعيش فيه ، فينتقل الانسان الى الغابات الاستوائية ليرى التماسيح وأفراس النهر وينتقل الى جليد القطب الشمالى ليرى الدب الابيض وهكذا .

باستثناء هذه الحديقة لم أر فى حدائق الحيوان في كثير من بلاد العالم سوى هذا المنظر العادى الذى نراه فى حديقة القاهرة ولقد تصورت ان كلكتا كبرى بلاد الهند، سأرى فيها العجاب من طيور الهنود وحيواناتها .. فلم يستوقفنى شىء من هذا القبيل ، وليس ســوى النمر البنغالى المشهور بقوته وشراسته .

وقد استوقفنى من حديقة الحيوان زهورها بأكثر مما راعتنى

حيواناتها ، فقد جعلتنى هذه الزهور اذكر فجاة اننى قريب من خط الاستواء واننى فى المنطقة الحارة ، حيث تترعرع النباتات وتزدهر ، فقد كانت الزهور من الضخامة بحيث تخطف البصر وتأسر اللب٠



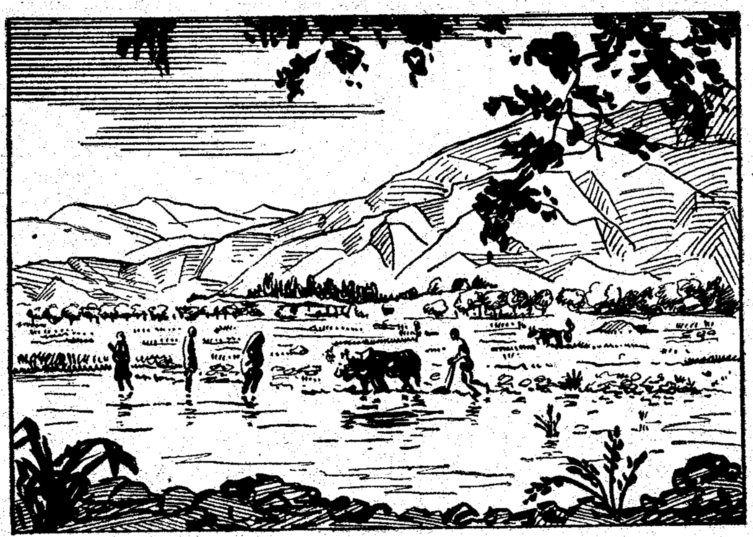
وفى كلكتا حديقة نباتات شهيرة عالمية ، ويوجد بها شجرة قديمة جدا يبلغ محيطها ألف قدم ، ويمكن لبضعة ألوف من النـــاس أن يستظلوا باوراقها ولم أستطع زيارتها مع الاسف الشديد لضيق الوقت ، فقد كنت أؤثر أن ازور بعض الصناعات لاشهد عظمة الهند الحديثة ٠

قصة الصناعة فى الهند

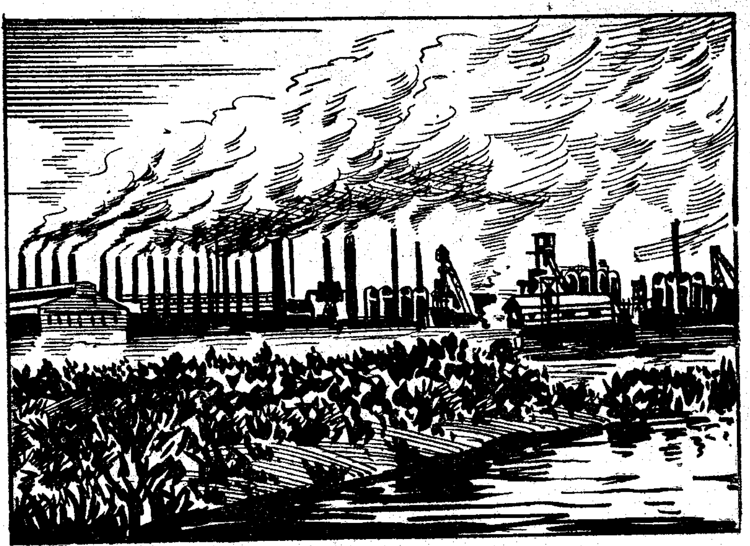
قلت لاصحابى والآن فلنقم بجولة بين الصـــناعات الهندية الحديثة فليس هناك ما يثير حماستى أكثر من أطالع مستقبل الهند العظيم من خلال صناعاتها، بل ان مستقبل الشرق كله سوف يبدأ من صناعات الهند ، وسرعان ما جاءنى الجواب من قنصلنا فى كلكتا، والذى درس كل شىء عن الصناعات الهندية ونهضة الهند الجبارة فى هذا السبيل٠ قال لى: «أى الصناعات تريد أن تختار رؤيتها؟٠ لان منطقة كلكتا تغص بالمصانع وهى توشك أن تكون بمثابة منطقة الرور من ألمانيا ٠ ان بكلكتا أعظم مصانع الجوت فى العالم كله ، وهى ثانى صناعات الهند كلها وأعظم صناعات التصدير بها ، فهى تمد الهند بثلث عمـــلاتها الاجنبية ، بل بثلثى عملاتها الصعبة ، وتبلغ ضريبة الجمارك وحدها من صادرات مصنوعات الجوت ٤٣ مليون جنيه ، فهل تريد أن تشهد بعض مصانع الجوت؟» قلت لصاحبى دع صناعة الجوت جانبا فأى الصناعات الاخرى يمكن مشاهدة مصانعها ؟

أجابنى هناك صناعة الغزل والنسيج التى أصبح تكفى الهند بكل ملايينها ، والتى بلغ انتاجها فى عام ١٩٥٢ رقما قيسيا ، اذ أنتجت ٤٦٠٨ ملايين ياردة من الاقمشة و١٤٤٨ مليون رطل من الغزل .

فقلت لصاحبى ان هذا يشبه الموقف فى مصر فان فى مصر مصانع للغزل والنسيج من أضخم مصانع العالم وان باستطاعة مصر بقليل من الجهد أن تسد كل حاجياتها وكان يجلس معنا أحد الخبراء فى الصناعة الهندية ، فقال لى على الفور ولكننى أتصور انكم فى مصر ما زلتم تستوردون آلات الغزل والنسيج من أوربا وأمريكا ، قلت له نعم . فأجابنى ، أما نحن فى الهند فقد خلفنا هذه المرحلة من أمد بعيد وبصفة خاصة منذ عهد الاستقلال ، أى فى سنة ١٩٤٧ ... وفى الهند الآن ثمانى مصانع تنتج كل آلات الغزل والنسيج الحديثة والتى تكفى لسد حاجة الهند وعندها من الفائض ما تصدره للخارج ولمصر بصفة خاصة ،



ذلك كان حال معظم أراضى الهند قبل بعثها



ومنذ عام ١٩٤٧ وبدات المصانع الهندية تضارب اكبر المصانع العالمية انتاجا وقوة

وتقف هذه الآلات الى جوار أجود ما تنتجه مصانع أوربا وأمريكا ، لان بعضها يعمل بالتعاون مع أقدم وأشهر المصانع المماثلة فى أمريكا وانجلترا ٠

وتنتج هذه المصانع ما يقرب من عشرة آلاف نول للنسيج فى العام الواحد ٠

قلت : هذا النوع من الصناعة ، صناعة الآلات والصناعات الثقيلة هو الذى يهمنى في الدرجة الاولى ، وأحب أن أزور بعض مصانعها ٠ وسرعان ما علمت ان هذه الصناعات موزعة فى أكثر من ولاية من ولايات الهند وما يقع منها فى منطقة كلكتا وما حولها لابد لزيارته من قطع مئات من الكيلو مترات فهناك مصانع الصلب الجبارة فى جامشدبور حيث تنتج مصانع تاتا وحدها ٧٥٠ ألف طن ، أى ثلاثة أرباع المليون وسترفعها فى العام المقبل الى مليون طن وهناك مصنع

لصناعة الطائرات فى بنجالور وهو مصنع « هندستان اير كرافت » وهناك مصنع لبناء السكك الحديدية فى «شيتا رنجان » ومصنع لبناء السيارات فى شركة « هندستان موتورز » وينتج سيارات «هندستان ١٤» وهناك ترسانة ضخمة لبناء أضخم السفن من عابرات المحيط والوحدات الحربية فى فيزاكايتام ٠ وهناك مصانع للمراوح الكهربائية ، وماكينات الخياطة تنتج خمسين ألف ماكينة ومصانع للدراجات ، تنتج ٢٠٠ ألف دراجة سنويا ومصانع للمحركات الكهربائية بما يقدر بمائة وخمسين ألف حصان ٠

ثم هناك صناعات التعدين الكبرى لاستخراج الفحم والحديد ٠٠٠ حيث تنتج الهند ما يزيد على ٣٦ مليون طن من الفحم الحجرى ، وتنتج ملايين الاطنان من الحديد الخام ٠ وهكذا أوجدت نفسى وسط طوفان من المصانع والصناعات المختلفة وأدركت ان الهند قد قطعت شوطا كبيرا فى الصناعة فى ظل حكم الانجليز بالذات ، وان الحربين العالميتين الاولى والثانية قد أرغمتا انجلترا على الاعتماد على الهند فى هذه الناحية ، وانه لولا الهند وصناعاتها فى الحرب العالمية الاخيرة لما استطاعت انجلترا أن تقف فى ميدان القتال شهرا واحدا بعد انهيار فرنسا ووقوفها بمفردها فى الميدان ثم دخول اليابان الى الحرب بعد ذلك ٠

وأدركت على الفور ان الهند الصناعية هى التى أرغمت انجلترا على الانسحاب منها ، فليس باستطاعة انجلترا ان تقاوم دولة صناعية وصلت الى هذا الحد من التطور ٠ ولم تكد الهند تظفر باستقلالها فى سنة ١٩٤٧ حتى وضعت برنامج الخمس سنوات لدفع البنيان الاقتصادى دفعة قوية نحو الامام ، سواء فى الزراعة أو فى الصناعة أو فى التجارة ٠

فخصصت مبلغ ٤٥٣ مليون جنيه لتوفير مياه الرى اللازمة لزراعة ٤٠ مليون فدان من الاراضى القاحلة ولزيادة الطاقة الكهربائية الى ٥ مليون كيلوات فى سنة ١٩٥٩ ولمضاعفة الانتاج فى شتى الميادين ٠

وسأعود لاستعراض هذا البرنامج فى فصل مستقل عقب حديثى عن زيارة دلهى حيث أتيحت لى فرصة الحصول على وثائق هذا المشروع وتفاصيل ما تم منه وما هو فى طريق التمام ٠

وهكذا علمت بمجرد سؤالى عن المصانع الهندية أن لزيارة هذه المصانع لا بد من مال كثير للانفاق على المواصلات ، ولابد من عمل ترتيبات سابقة ٠ ولذلك فقد قنعت بزيارة أقرب المصانع الينا من غير صناعات الجوت أو القطن، فكانت القرعة لمصنع من مصانع المستخرجات الكيمائية والطبية ، ومصنع آخر لصناعة الورق ، أما مصنع المستحضرات الطبية فقد كان تابعا لشركة البنغال للمستحضرات الكيمائية والطبية والتى يبلغ رأسمالها ملايين من الجنيهات، وتعتبر أحد مفاخر الهند، لانها كانت منذ وقت مبكر تدار كلها برؤوس أموال هندية بحتة وبعقول وخبراء من الهنود ٠ وقد تأسست أول ما تأسست منذ أكثر من سبعين سنة لتنتج أدوية تعتمد على الاعشاب الهندية وتتبع طرق العلاج الهندية القديمة ٠٠٠ ولم تلبث أن تطورت حتى أصبحت من أعظم شركات الهند وغمرت منتجاتها التى تقدر بعشرات الملايين من الجنيهات قارة الهند كلها ، وتقف بالمرصاد لكل المستوردات الكيمائية والطبية الواردة من خارج الهند ٠

ولقد طفت فى أحد مصانعها المترامى الاطراف ورأيت كيف يحضر « الكفايين » من الشاى بكميات ضخمة بحيث استغنت الهند عن الخارج فى هذه المادة ، ورأيت عشرات من مختلف المستحضرات الطبية على شكل مشروبات أو أقراص أو حقن وهى تجهز ٠ ولكننى لم أرتح لمستوى النظافة العامة ، بل لقد أصبت بصدمة، ان تستحضر الادوية وأقراصها وسوائلها فى مثل هذه العنابر القديمة الغير نظيفة ٠ ولم يتح لى بطبيعة الحال زيارة المصانع الكبرى المماثلة لانتاج الكيماويات والمستحضرات الطبية ولكنى لا أتصور بحال من الاحوال ان تكون فى مثل هذا الحال الذى رأيت عليه هذه المصانع الهندية الكبرى ٠ ولا جدال ان مرجع ذلك هو قدم هذه المصانع ٠

وقد حدثنى مدير الشركة كيف ان لهم مصانع أخرى جديدة وأعظم فخامة ولكنها تبعد عن كلكتا مسافات طويلة ٠

مصـــنع ورق

وزرنا بعد ذلك مصنع ورق، وقد ترك فى نفسى أثرا عميقا لضخامة انتاجه وجودته ٠

وقد ذكرنى مصنع الورق بمصانع الصلب التى رأيتها ، ذلك انه يستعمل الكتل الخشبية من فروع الاشجار كمادة أولية ٠٠ وهى تحتاج فى تخزينها وفى نقلها الى أجهزة وآلات ثقيلة أشبه بهذه الآلات التى توجد فى مصانع الحديد والصلب ٠ فهو على خـــلاف مصنع الورق القائم فى الاسكندرية ، حيث يحضر الورق من عجينة تستورد من خارج البلاد ٠ ففى هذا المصنع الذى زرته ، تعد هذه العجينة فى داخل المصنع من الاخشاب التى تستجلب من غابات خاصة يملكها المصنع فى أكثر من ناحية من نواحى الهند ٠ أما منتجاته فمن أفخر أنواع الورق التى لم أتمالك نفسى من أن أحتفظ ببضع عينات منها كآية على جودة الصناعة الهندية وتفوقها على الصناعة الاوربية فى هذا الورق ٠

جولة سياسية

قلت لصاحبى ، والآن أريد أن أجول جولة سياسية ، أريد أن أقابل بعض الشخصيات ، أريد أن أزور لجنة المؤتمر الهندى ، أريد أن آخذ فكرة عن كيف يحيا ساستهم ٠

وفى رانجون قابلت وفد الهند فى المؤتمر الاشتراكى ، وقد كانوا جميعا يرتدون هذا الزى البسيط الذى لا يزيد عن كونه «بيجاما» من القماش الابيض الرخيص ، ولا جدال ان ذلك كله أثر من آثار جهاد غاندى ، هذا الجهاد الرائع لمحاربة الصناعات الانجليزية ٠٠٠ لقد جاءت انجلترا الى الهند، فقتلت صناعة الهند، وحولتها سوقا للمنتجات

الانجليزية فليس هناك ما تحارب به انجلترا أشد من مقاطعة تجارتها، وعلى رأسها الاقمشة القطنية التي يستطيع الهنود أنفسهم أن يصنعوها بأيديهم ، بل باستطاعة كل هندى أن يغزل لنفسه القدر اللازم لصنع قطعة من القماش يستر بها عورته ، وهذا هو كل ما يحتاجه الهندى في هذا الجو الحار • ولقد نجحت حركة غاندى أعظم نجاح ، واذا كانت الهند اليوم تنتج بواسطة المصانع الميكانيكية كل حاجياتهـــا من الاقمشة الهندية ، فان كفـــاح غاندى فى سبيل نشر هذا المغزل اليدوى هو الاساس الذى يقوم عليه اليوم هذا البناء المشمخر من صناعة الغزل والمنسوجات الهندية • وهذا الذى رأيته من ملابس وفد المؤتمر الاشتراكى فى رانجون وأعنى به البيجاما كان يعـــلو درجة عن هذا اللباس السائد فى البنغال والذى يطلقون عليه اسم « الدوتى » والذى لا يزيد عن قطعة من القماش تلف حول الساقــين ويغطى بجزء منها الجزء الاعلى من الجسد • ويقف هذا الزى البسيط الى جوار ملابس السهرة الاوروبية بحيث ترى الاعلانات المألوفة فى الفنادق الكبرى ، أو فى بعض الحفلات الرسمية « الحضور بملابس السهرة أو بالملابس الوطنية أى الدوتى » •

ورغبت فى أن أزور رجال السياسة وأرى كيف يعيشون، وكيف يحيون، وكيف يعالجون الامور • وزرت وزيرا سابقا حاصلا على درجة الدكتوراه وهو الدكتور « جوش » وكان يسكن فى الطابق الارضى من بيت صغير ، وأدخلنى مسكنه ولم يكن سوى حجــرة واحــدة فيها فراش نومه الصغير وفيها كتبه وفيهـا كل حاجياته ، وأدركت ان هذه الحجرة هى كل مسكنه • وكدت أقول ما أبسطها ، ولكنى تذكرت ان غاندى كان يذهب الى أبعد من ذلك ، لم يكن ينام على سرير بل كان ينام على الارض بل لم يكن يجلس على « حشية » وكان يكتفى بالحصيرة • حقا لقد أتعب غاندى رجال أمته ، أتعب كل السياسيين والزعماء فى الهند ، فقد ضرب لهم رقما قياسيا من العسير محاكاته، ولكن لا أقل من الاقتراب منه لكل من يريد أن يحصل على بعض احترام الجماهير •

وحدثني صاحبي القنصل عن الحاكم العام لولاية كلكتا ، وكيف يعتذر لكل من قابله لاضطراره أن يقيم فى قصر الحاكم العام الانجليزى بكل فخامته وروعته • ان الحاكم العام وزوجته من رجال المؤتمر ومن أتباع غاندى ، من هؤلاء الذين حملوا عبء الجهاد والكفاح لاجـــلاء المستعمر ، ومن هؤلاء الذين عاشوا طوال عمرهم فى بساطة متناهية وبودهم أن يواصلوا هذه الحياة، ولكن الهند المستقلة تريد أن تؤكد عزتها ، تريد أن تؤكد سيادتها ، تريد أن تضع هنديا فى ذات المكان الذى كان يتربع عليه الانجليزى بكل غطرسته وصلفه وغروره ، ليدرك الهنود أنفسهم قبل العالمين ان فى هذا القصر المنيف يقيم اليوم هندى يحكم الشعب باسم الشعب • ولكن الحمل فوق طاقة الرجل وفوق طاقة زوجته ، فقد عاش فى السجون والمعتقلات ولكنه لم يعتد حياة استقبال السفراء واقامة المآدب • وهو يخفف الحمل عن نفسه بأن يحدث كل من يقابله فى هذا الموضوع ، وتعتذر زوجته لضيوفها عن عدم حذقها الاكل على الطريقة العصرية لانها فى حياتها لم تجربها •• وتقول لهم ومع ذلك فسوف أتعلم وسوف تروننى فى المرة القادمـة أحسن حالا من هذه المرة ••• وأخذنى صاحبى فى حفلة أقيمت تكريما للبعثة الاندونيسية التجارية ليتاح لى رؤية الحاكم ولاشهد عن قرب مدى بساطته سواء فى زيه أو فى تصرفه • وكان ما رأيت يطابق هذا الذى سمعت • ودعانى الجناح الايسر الخارج على الحزب الاشتراكى لزيارته فى مقر رئيسته • فذهبت اليه ولم يدهشنى أن تـكون الرئيسة ساكنة فى حجرة فوق سطوح بيت مادام ذلك شـــأن بعض الوزراء وأخيرا هيأ لى صحفى عراقى يقيم فى كلكتا ويصدر جريدة باللغة الانجليزية وهو الدكتـــور س • الكيـــلانى فرصـــة زيارة لجنة المؤتمر الهنـــدى ومقابلة كبار أعضائها • ولم يـكن البيت الذى قصدناه بيتا ضخما ولا ناديا مما قد يتصور الانسان ان يكون عليه نادى الحزب الذى يحكم الهند الآن، لقد كان بيتا متواضعا يتألف من طابقين ولا يحتوى على أى مظهر من مظاهر الترف أوالبذخ• ولقد جلسنا فى حجرة بها منضدة خشبية وجلس حول هذه المنضدة

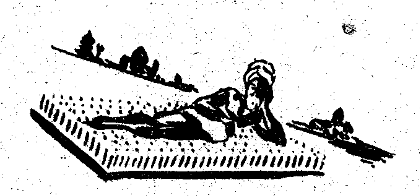
ستة أو سبعة من رجال الهند كان مظهرهم ينم على بساطة تامة ومع ذلك فقد كانوا يؤلفون أعضاء اللجنة للمؤتمر الهندى فى كلكتا ... وكان من بينهم من يعد مليونيرا ومن يعتبر من الاساتذة العلماء .

مؤتمر صحفى

وحانت الساعة التى كان يجب على فيها أن أغادر كلكتا ، فنظم لى صاحبى مؤتمرا صحفيا لاستطيع أن أبسط بعض أرائى وأفكارى فيما رأيت وشاهدت سواء فى المؤتمر الذى اشتركت فيه فى رانجون ، أو فى كلكتا ، ولكى لا ادع كما هو شأنى فرصة تمر دون أن أدعو لمصر وأبسط قضيتها على العالمين .

ولقد عقد المؤتمر فى الفندق الذى كنت أقيم فيه ، ولبى ممثلو الصحف الكبرى كلها الدعوة ، وقضوا معى أكثر من ساعتين وهم يسألون عن مختلف الشئون المصرية والعربية والعالمية وأنا أرد عليهم وفى اليوم التالى كانت كل صحف كلكتا تنشر كل أرائى وأقوالى التى شرحت فيها ثورة مصر الكبرى فى أهم صفحاتها .

وباتمام هذه الخطوة تصورت ان زيارتى لمدينة كلكتا يجب ان تصل الى نهايتها ، وقررت ان يكون هدفى الثانى هو مدينة بنارس مدينة الهند المقدسة ، وقررت أن أسافر اليها بقطار السكة الحديد ، لا بالطائرة ، وذلك لتتاح لى الفرصة لاختراق أكبر جزء من الاراضى الهندية ، وليس هناك كرحلة طويلة فى السكة الحديد توقفك على الكثير من أحوال البلاد التى يسير فيها الانسان .



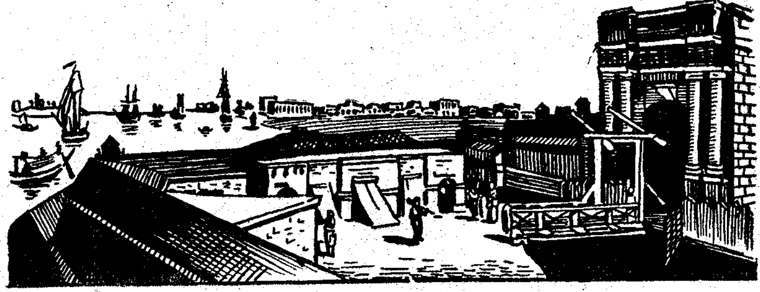
الفصل الرابع

الاستعمار البريطاني في الهند

لم يكن قد بقي على مغادرتي لكلكتا سوى ساعات ، عندما زارني تاجر هندي كان قد قابلني في مدينة رانجون ، وعرض علي أن يجول بي جولة في مدينة كلكتا ، فلبيت الدعوة على الفور لانه لم يكن لدي ما أقضي فيه هذه الساعات الباقية ۰ وحملتنا السيارة الى ميناء كلكتا أعظم ميناء في الشرق وفي طريقنا مررنا بما يسمى شارع القرود ، حيث ترى القرود تسرح وتمرح في الشارع والمارة يقدمون لها بعض الاطعمة ، أشبه بالحمام الذي تجمع في بعض ميادين لندن أو نيويورك وروما ۰۰۰ أو في داخل الحرم المكي ۰۰۰ حيث يتـــكاثر ويألف الناس الذين يطعمونه ۰ وتحل القرود هنا محل الحمام ۰

الالهة سوارستي

وثمة منظر آخر لفت نظري ــ وهو رؤية هذه الجماعات التي تركب سيارات ، أو عربات وتحمل بينها تمثــالا صغيرا مزينـا بالورود والرياحين يشبه عرائس المولد عندنا ، وهو تمثال الالهة سوارستي آلهة الحكمة والعلم والفنون ۰ ومذ وصلت الى مدينة كلكتا وأنا أشهد



مدينة كلكتا القديمة كما تبدو من قلعة وليم

مظاهر الاحتفالات بعيد سوارستى ، وهى احتفالات تستمر عدة أيام، حيث تقيم كل أسرة فى بيتها تمثالا لسوارستى تزينه بالورود وتحيطه بالشموع ، وفى نهاية أيام العيد ، تأخذ كل أسرة تمثال «سوارستى» الى نهر الهوجلى ، وهو أحد فروع نهر الكنج المقدس وتقذف بالتمثال الى أعماق النهر · وفى هذه اللحظات الاخيرة التى أمضيتها فى كلكتا كانت هى الوقت المقرر لالقاء سوارستى فى النهر فكانت هذه السيارات والعربات تضم العائلات المختلفة وهى تغنى وتعزف الموسيقات احتفالا بهذه اللحظة المقدسة ، لحظة القاء « سوارستى » فى النهر · وهى أشبه الاشياء بما كان يفعله قدماء المصريين عندما يلقون فى كل عام عروسا « صناعية » فى نهر النيل ·

قلعة وليم

على أن ذلك لم يثر اهتمامى فى قليل أو كثير ، فهو شىء تافه جدا بالقياس لما كنت أتوقع رؤيته من العجائب والغرائب فى الهند · ولكن الشىء الذى استوقفنى وجعل الدم يتصاعد الى رأسى ··· والذكريات تتزاحم على حتى تكاد تخنقنى والذى لا أستطيع الا أن أقف أمامه فى هذا الكتاب ، وان أقف طويلا ، والا لما استحق أن يوصف بأنه كتاب عن الهند · هذا الشىء أو هذا الاثر هو ما يطلق عليه « قلعة وليم » والتى ليست سوى هضبة صغيرة لم أستطع أن

أتبين فيها قلعة من هذه القلاع القديمة الجبارة فهي مجرد نتوء وارتفاع عن الارض ، تشيع فيه الروح العسكرية •

وكانت هذه هي نقطة الارتكاز التي ارتكز عليها الانجليز الاوائل لغزو الهند في القرن الثامن عشر • من هنا بدأ الاستعمار البريطاني سلطانه ، من هنا بدأت شركة الهند الشرقية سلطانها ، من هذه المحارة على شاطيء البحر خرج هذا الاخطبوط الخبيث الذي طوق الهند وكبلها بزعانفه ، وأطرافه الثعبانية فامتص دماءها وكاد يزهق أنفاسها • من هذه النقطة بدأ الطاعون وانتشرت اللعنة في كل أرجاء الهند ــ لعنة الاستعمار البريطاني •

ويالها من قصة ••• قصة استعمار الانجليز للهند ، أو بالاحرى قصة استيلاء شركة تجارية على قارة بأكملها وعلى امبراطورية عريقة من أعظم الامبراطوريات التي عرفها التاريخ • ولم تكن شركة الهند الشرقية سوى شركة تجارية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، شركة تجارية ألفها بعض الاغنياء والمغامرين ليتجروا في منتجات الهند ويبيعونها في أسواق انجلترا وأسواق أوربا بصفة عامة • ثم لم تلبث هذه الشركة ، لم تلبث هذه الحفنة من التجار أن أصبحوا يحكمون امبراطورية يزيد عدد سكانها على سكان الجزر البريطانية مائة مرة •

ولنبدأ القصة من أولها على مايقولون ــ فهي قصة جديرة بالتسجيل وقد تفترق الآراء في نوع هذه القصة ، وهل هي مأساة أم مهزلة ولكن الذي لا شك فيه أنها كابوس ــ كابوس مخيف ــ لم يجثم على صدر الهند فحسب •• بل على صدر البشرية كلها •• وما كان باستطاعتنا أن نسرد تفاصيل هذا الكابوس ــ لولا اننا استيقظنا منه ــ وباستطاعتنا أن نطمئن الى أننا لن نعود الى هذا الكابوس •

يقول **نهرو** رئيس وزراء الهند في كتابه « **اكتشاف الهند** » انه من الواضح أن سقوط الهند في براثن الاستعمار كان أمرا حتميا فان ثورة القرن التاسع عشر الصناعية ، قد قلبت الاوضاع رأسا على عقب ، وكان لا مناص من أن تنهار كل القيم والمقاييس القديمة ، ولما

كان الشرق بصفة عامة والهند بصفة خاصة ، غارقة فى بحار هـذا القديم، وغافلة عن هذه الثورة الجديدة فقد كان طبيعيا أن تنقرض انظم القديمة ، وأن تنهار أمام هذه الطاقة الجديدة التى انطلقت من أوربا ، طاقة الثورة الصناعية الجديدة ، ثورة الحديد والنار ، والبخار والكهرباء ، والقطار والباخرة ، والالة الميكانيكية .

وكانت الهند أول من وقع فريسة هذه العاصفة الجديدة الجائحة ، لا لشىء الا لانها كانت أغنى بلاد آسيا ، ولانها كانت هدف التجارة الاوربية كلها ، وكان مؤشر البوصلة البحرية فى كل سفن أوربا يشير اليها دائما ، ويتجه صوبها دائما . لقد قالوا قديما كل الطرق تؤدى الى روما ولكن العصور الحديثة قد قلبت هذه الآية وجعلت كل الطرق تؤدى الى الهند . قامت كل نهضة أوربا الحديثة، كل عنفوانها، كل سلطانها على العالم فى خـلال البحث عن الطريق المؤدى الى الهند .

فهذا خريستوف كولومبوس يريد أن يذهب الى الهند متبعـا طريق الغرب بعد أن سدت الدولة العثمانية طريق الشرق للوصول الى الهند ــ وفى خلال هذه المحاولة اكتشفت أمريكا ، ولكن كريستوف كولومبوس مات وهو ما يزال يعتقد أنه قد وصل الى الهند .

وفاسكو دى جاما يطوف حول افريقيا ــ ليكتشف طريقا جديدا يوصل الى الهند ، وماجلان يطوف حول العالم ليصل الى الهند لقد ألهبت الهند خيال الاوربيين ، فلا حد للكنوز التى تضمها الهند ، لا حد للغنى الذى يمكن الحصول عليه بالاتجار مع الهند ، أو لم يحدثهم ماركو بولو عن المدن العظيمة التى لا تحصى فى هذا الشرق ، وعن الجواهر واللآلىء والانهار التى تفيض بالسمن والعسل ، لقد سحر الجميع فى بادىء الامر من أحاديث ماركوبولو ولكن هـذه الاحاديث نفسها لم تلبث أن ألهبت خيال الاوربيين الذين كانوا قد وضعوا أقدامهم على سلم الشباب ، كل ما فى الشباب من طموح ، وخيال وحيوية . لم تكد أوربا تخرج من ظلمات العصور الوسطى حتى

بدأت تتطلع حول آفاق جديدة ، ولم تكن هذه الآفاق الجديدة سوى ارتيادالبحار للوصول الى الهند ، بعد أن أصبح الضرب فى عرض البحار ميسورا باختراع البوصلة البحرية • ولا تزال كتب ماركوبولو فى مكتبة أسبانيا وعلى هامشها تعليقات من خريستوف كولومبوس •

وفى ظل هذه الحمى للاتجاه صوب الهند ، والاتجار مع الهند ، والاغتراف من كنوز الهند تألفت شركة الهند الشرقية فى انجلترا أى ابان حكم اليصابات « الملكة اليزابيث » وكان ذلك فى سنة ١٦٠٠ ميلادية أى منذ ثلاثمائة وخمسين سنة فقط ولم تكن هذه الشركة هى الوحيدة التى تألفت للاتجار مع الهند• بل تألفت مثل هذه الشركة فى كل دول أوربا فى أسبانيا وفى البرتغال وفى هولندا وفى السويد وفى فرنسا •• فى كل مكان تألفت شركة للاتجـــار مع الهنـــد تحت هذا الاسم المنكود ــ الهند الشرقية ــ ولم تكن انجلترا فى ذلك العهد البعيد سوى دولة من دول أوربا • فلم يكن لشركتها أية أهمية تذكر ولكن النزاع الذى بدأ منذ ذلك العهد للسيطرة على الطرق البحرية جعل أمر هذه الشركة يبرز بالتدريج • لقد حطم الاسطول الاسبانى « الارمادا » على شواطىء انجلترا فى عهد الملكة اليزابيث فتنفس الانجليز الصعداء وانطلقت سفنهم تجوب البحار أكثر حرية وأصبح القراصنة الانجليز هم رعب البحار ولكن كان البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون لا يزالون هناك، كانت سفن هؤلاء وهؤلاء وقراصـــنة هذه الدولة أو تلك تقارع قراصنة الانجليز فى أعالى البحار ولكن الغلبة انتهت فى النهاية لقراصنة الانجليز فقد كان البحر بالنسبة لهم كما هو اليوم مسألة حياة أو موت لان الجزيرة البريطانية لا تستطيع أن تطعم سكانها فحياة شعبها فى البحار وعلى البحـــار ، ووراء البحار •

وبينما كانت دول أوربا كلها مشغولة بالحروب فيما بينها ، بينما كانت فرنسا تطمع فى السيطرة على أوربا ، بينما انهكت حــــرب الثلاثين ألمانيا وفرنسا والسويد، كانت انجلترا تمد خطوطها فى هذه البحار وتزيد من سفنها ، ويتكاثر قراصنتها ، وتتجه بنشاطها نحو

هذه الآفاق البعيدة . وهكذا تفوقت انجلترا فى أعالى البحار بالتدريج وبازدياد هذا التفوق كانت شركة الهند الشرقية الانجليزية تزداد تفوقا وسلطانا ونفوذا فى أرجاء الهند بحيث لم تعد شركة تتاجر فى التوابل والجواهر والاصباغ والشاى ولكنها أصبحت تتاجر فى الاراضى والولايات ومصائر الامراء والهنود .

انحلال حكم المغول

نحن الآن فى القرن الثامن عشر فى خلال المائة عام التى أعقبت ازدهار حكم المغول المسلمين فى الهند ، هذه الفترة من تاريخ الهند التى سنعود اليها عندما نصل الى دلهى الجديدة ومدينة أجرا حيث نرى مظاهر الحضارة والرقى التى لامثيل لها فى أى قطر من أقطار العالم فى هذه المرحلة من التاريخ . لقد انتهى عهد المغول بانتهاء حكم أورانجزب «١٧٠٧» ، حقا لقد ظل الاباطرة من المغول يقيمون فى دلهى فى ذات القصور والقلاع ، وظل اسمهم هو الاسم الوحيد الشرعى لحكم الهند كلها، ولكن ذلك كله لم يكن سوى ظل من ظلال الماضى ، لم يكن سوى شبح لا يعبر عن حقيقة ، فقد انفرط عقد الهند وانقسمت كما كان شأنها قبل حكم المغول الى عدة ولايات وممالك وامارات ... لقد استقل نائب الامبراطور فى كل ولاية بولايته ، واشتعلت نيران الخلافات المذهبية والطائفية والجنسية التى استطاع « أكبر » أعظم أباطرة المغول ان يسيطر عليها . ولكن « أكبر » لم يعد هناك ، وانما كانت هناك الفتنة والخلافات والاحقاد والحسد والشهوات . وفى هذا الجو بدأت شركة الهند الشرقية زحفها فى الهند على صورة جديدة غير الصورة التى بدأت عليها من قبل .

ولم يكن البدء الذى بدأت به شركة الهند الشرقية سوى البدء العادى الذى تبدأ به كل شركة وهو الحصول على رخصة لانشاء «ورشة» فى مدينة سوارت على الشاطىء الغربى للهند وجنوب مدينة بومباى وكان ذلك فى أوائل القرن السابع عشر ، ولم يكن هناك أى

حرج بطبيعة الحال فى تخويل شركة حق التجارة ، وحق اقامة بعض المنشئات •

واشترت الشركة بعد ذلك قطعة أرض فى جنوب شرق الهنـد وأسسوا عليها نقطة هى التى عرفت فيما بعد، وتعرف اليوم باسـم مدراس أعظم مدن الهند الجنوبية • وفى سنة ١٦٦٢ قدمت البرتغال جزيرة صغيرة على شاطىء الهند تسمى جزيرة بومباى الى شارل الثانى ملك انجلترا « كدوطة » أو مهر لابنتهم التى تزوجها شارل الثانى ، فتنازل عن هذه الجزيرة لشركة الهند الشرقية •

وفى سنة ١٦٩٠ أى قرب انتهاء القرن السابع عشر أنشأت الشركة بلدة كلكتا، وأنشأت بها لاول مرة هذه القلعة « قلعة وليم » وبدأت قصة الغزو الحقيقية للهند • فقد كان الانجليز قد بدأوا يعرفون كل شىء عن الهند وعن داخليتها ، يعرفون الانحلال والتدهور الذى أصاب حكومتها المركزية ، حكومة الامبراطور ، وكانوا كما ذكرت من قبل قد صفوا حسابهم الى حد كبير مع الاسبانيين والبرتغال والهولانديين فى أعالى البحار • فبدأ الزحف داخل الهند نفسها •

أما كيف تحولت شركة الى قوة مسلحة، فمسألة طبيعية جدا نتيجة الاحوال التى كانت سائدة فى هذه العصور • فقد كان مجرد ارتياد البحار مخاطرة من الطراز الاول ، فقد كان نهب السفن وقرصنـة البحار طابعا من مميزات العصر • ولذلك فقد كان على كل شركة تجارية تعمل فى البحار أن تحصن سفنها ، وأن تهيىء نفسها للدفاع ضد غارات القرصان • فكانت السفن تسلح وكانت تشحن بالافاقين والمغامرين القادرين على الدفاع عن أنفسهم ، واذا حلت السفينة فى أى مكان على ساحل البحر فيجب أن تظل يقظة لئلا يدهمها القرصان من البر أو البحر • وعندما تعاقدت شركة الهند الشرقية مع أباطرة المغول الضعفاء على بناء هذه المنشأة أو تلك ، فقد اشترطوا أن يحميهم الامبراطور ، ولما كان الامبراطور أضعف من أن يقدم لهم هذه الحماية فقد أعطاهم الحق فى حماية أنفسهم • فاستأجروا من الهنود العدد

اللازم لحراسة أموالهم والدفاع عن مصالحهم ، ووضع على رأس هؤلاء الهنود ضباطا ورؤساء من الانجليز ، فدربوهم التدريب العسكرى الحديث ، فزاد ذلك فى فاعلية هذه الوحدة . وبدأ الامراء المتحاسدون من الهنود يستأجرون وحدات شركة الهند للاستعانة بها فى خلافاتهم . ولم تتأخر شركة الهند عن استثمار هذا الضرب الجـديد من جنى الارباح ، ولكن الشركة لم تلبث أن تطورت فى نوع أجورها فلم تعد ترضى بالمال ثمنا لعساكرها ، بل بدأت تطلب امتيازات وتوسع رقعة ممتلكاتها ، ولما كان كل من فى الهند ينظر للشركة نظرة غير جدية فلم يكن هناك من تردد فى اعطاء الشركة كل ما تريد فان أرض الهنـد لا أول لها ولا آخر ، وكان هؤلاء الوافدون من وراء البحار ... هؤلاء الاشخاص زرق العيون وصفر الشعور ، لا يزيدون عن شعرة ... شعرة واحدة فوق هذا الجسد العملاق ، جسد الهند ، وبهـذا الاسلوب بدأت شركة الهند توسع ممتلكاتها على حساب الامراء وحكام الولايات ... وبدأت تضع بعض صغار هؤلاء الامراء تحت حمايتها وبدأت تمد البعض الآخر بالنصائح والمستشارين .

وكانت شركة الهند فى خلال ذلك كله تعمل باسم امبراطور الهند، ذلك الشبح الجالس فى نيو دلهى ، والذى لم يكن له أى نفوذ أو سلطان ، ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعمل باسمه ولحسابه ، ولهذا استطاعت الشركة أن تثبت أقدامها وأن تمد خطوطها وان هو الا منتصف القرن الثامن عشر أو بالاحرى فى سنة ١٧٥٧ على وجه الدقة حتى خاضت جيوش الشركة تحت قيادة «كليف» أول معركة حربية كبرى لحساب الشركة وهى معركة « بـلاس » والتى تعتبر نقطة البدء فى سيطرة الانجليز على الهند من الناحية الفعلية . ويعتبر «كليف» تبعا لذلك انه فاتح الهند . **ولم تكن هذه المعركة معركة استعملت فيها الشجاعة أو الفروسية ، ولم يكن الانتصار فيها هو انتصار عسكرى ، بمقدار ما كان انتصارا لمؤامرات الشركة وشرائها الذمم بالاموال ، واستعمال أساليب الغش والخداع والخيانة على ما يقول الباندىت نهرو فى كتابه « اكتشاف الهند » .**

وبانتصار شركة الهند فى هذه المعركة كان كل البنغال ، أثمن وأغلى جزء من الهند ، يقع تحت سلطان الشركة المباشر ، وتبع سقوط البنغال سقوط ولاية بيهار ٠٠ ولم يكد هذا القسم الفنى الذى لا مثيل لغناه فى العالم ، يقع تحت سلطان الافاقين من الانجليز ، حتى انتشر القحط الذى هدد هذه المنطقة كلها ولم يقف الا بعد أن أفنى ثلث سكان هذه البقعة التعسة ، ولم يكن ذلك الا طلائع الحكم الانجليزى فى الهنـد ، فحيثما سارت جيوشهم واستتب سلطانهم ، سار الفقـر وراءهم ٠ وكلما كان سلطان الانجليز فى جزء من الهند أعرق ، كلما كان الفقر أبعد غورا ٠ وقد أورد الباانديت نهرو فى كتابه « اكتشاف الهند » الادلة على ذلك ٠

استولى الانجليز على البنغال وأصبحت كلكتا هى حصـنهم وهى عاصمتهم وهى قاعدة أعمالهم الكبرى فى الهند ٠ ولكن الهنـد كانت مترامية الاطراف ٠ ولم يكن هناك من يتصور أن الهند ستنتهى الى أن تصبح انجليزية ، فقد ظل الجميع يتصورون أنهم يتعاملون مع شركة ، شركة لا تبغى سوى جنى الارباح وليس الاسـتعمار أو السـلطان أو السيادة من أغراضها ٠

وفى خلال القرن الثامن عشر ، وبعد معركة «بلاس» ، ظلت هنـاك قوى أربع تتنازع السلطان فى الهند ، وكان الانجليز يعتبرون أقـل هذه القوى ، ومن هذه القوى الاربع اثنتان هنديتان واثنتان أجنبيتان ٠ أما القوتان الهنديتان فهما قوة أمراء « المهراتا » فى الشمال ، وقوة حيدر على وابنه سلطان تيبو فى مملكة ميسور فى الجنوب ٠ وأما القوتان الاجنبيتان فهما الانجليز والفرنسيون ٠ وقد بدأ الانجليز بتصـفية الموقف مع الفرنسيين فاستطاعوا أن يقصوهم نهائيا عن الهند بعـد هزيمتهم لنابليون وأساطيله ، ثم شرعوا يصطدمون بحيدر على الذى كان يسيطر على جنوب الهند ، وهو لم يصمد لجيوشهم فحسب ، بل لقد استطاع أن ينتصر عليهم فى كثير من المعارك الحاسمة ، ولكنه لم يكن سوى انتصارا محليا لا يعدو جنوب الهند ٠ فالهنـد مترامية

الاطراف وليس للانتصار فى جنوبها تأثير على الظروف العامة التى تسودها وتسيطر عليها .

ولقد كان نضال حيدر علي ، أمير ميسور وابنه سلطان تيبو للانجليز هو يقظة روحية للمسلمين فى الهند ... ويتحدث الهنود على اختلاف اديانهم ، عن سلطان تيبو بالاحترام والتقدير ، فقد كان كفاحه هو مظهر استيقاظ الوطنية الهندية ومقاومة الغاصب الاجنبى ، وقد أدرك سلطان تيبو مدى اعتماد الانجليز على بحريتهم وانه للتغلب عليهم لابد من منازلتهم فى البحر ، فاتصل بكل أمراء الهند يدعوهم للتعاون معه لانشاء بحرية ، واتصل بالخليفة العثمانى فى القسطنطينية يطلب منه العون والمساعدة ... ولكن أحدا لم يمد له يدا ، فشرع فى الاعتماد على نفسه ، وانشأ بحرية بالفعل ، كان يمكن أن تكون نواة لقوة أكبر منها تكفى لسحق الانجليز ، بل ان سلطان تيبو وصل الى حد كاد يحطم فيه بالفعل سلطان شركة الهند الشرقية . ولكن التاريخ كان قد قضى قضاءه ، كان يطوى صفحة ليبدأ صفحة جديدة ... كان يطوى حياة الطيب والافاويه والحرير والتوابل والجوارى الحسان، ليبدأ صفحة جديدة من الماكينات والآلات والطائرات والسابحات والغائصات .

وفى عام ١٧٩٩ وقعت المعركة الفاصلة بين شركة الهند الشرقية وبين تيبو ، سلطان ميسور ، فدارت الدائرة على السلطان . ولم يبق هناك فى الهند كلها من ينازع سلطان شركة الهند سوى أمراء المهراتا فى الشمال . وكان التاريخ يعبد الطريق للانجليز ليتم قضاءه ، فاذا بالايرانيين وهم أمراء الشمال الغربى للهند يهاجمون تحت قيادة نادر شاه شمال الهند ويلتحمون بأمراء المهراتا ويصيبون جيوشهم بكارثة لم تقم بعدها قائمة ... فلما بدأ الانجليز يلتحمون بهم كان أمراء المهراتا قد فقدوا شوكتهم .. لقد استطاعوا أن يهزموا الانجليز هزيمة منكرة فى موقعة بالقرب من «أجراء» سنة ١٨٠٤ ولكن ذلك كان آخر مافى جعبتهم ، بينما كانت قوى الانجليز فى صعود مستمر ،

ولذلك فلم يأت عام ١٨١٨ حتى زعماء ولايات المهراتا قد انفرط عقدهم وخضعوا الواحد تلو الاخر لسلطان شركة الهند الشرقية ، وبذلك أصبح أربعة أخماس الهند تحت سلطان الشركة المباشر أو الغير مباشر عن طريق مستشاريهم لدى الامراء والمهراجات والنظامات ، وعلى رأسهم نظام حيدر آباد الذى تحالف منذ وقت مبكر مع الشركة فظل محتفظا باستقلاله فى الظاهر ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة سوى ألعوبة فى يد الشركة • وهكذا أصبحت الامبراطورية الهندية حقيقة مقررة ••• حقا كان لا يزال هناك اقليم البنجاب يحكمه أمراء من السيخ خارج سلطان الشركة ، وكانت هناك قبائل الجركا فى نيبال التى كانت أبعد من أن تعنو لسلطان الانجليز ، وقد كانت جيوشهم المنظمة وشجاعتهم النادر أكثر من ند لاى جيش يمكن أن تسوقه اليهم شركة الهند ، ولكن ذلك لم يكن يغن من الواقع شيئا ، وهو أن ساعة الهند المستقلة قد وقفت وكان مقدرا لها أن تظل واقفة مائة عام بعد ذلك •

ففى عام ١٨٤٩ جاءت النهاية المحتومة ، حيث هزم الانجليز جنود السيخ فاستولوا بذلك على البنجاب ، آخر أجزاء الهند تحررا من سلطانهم • وأصبح شأن قبائل الحدود الشجعان هينا ، فما على الانجليز الا أن يسالموهم ، بل وأن يقدموا لهم بعض المساعدات والاموال لكى يأمنوا جانبهم ، بل ولكى يستخدموهم لتحقيق أغراضهم •

وبدأت الهند تشعر بالحقيقة المرة • انها لاول مرة فى تاريخها تحكم لحساب قوة أجنبية تبعد عنها ألوف الإميال • لقد غزيت الهند من قبل ، ولقد حكمتها قوات جاءت من الخارج ، ولكن هؤلاء الغزاة حكموا الهند لحساب الهند ، ولم يحكموها لحساب قوة خارج حدودها• لقد حكم المغول المسلمون الهند بضعة قرون ، ولكن هؤلاء الملوك كانوا هنودا فى كل شىء ، الهنود اليوم يحتفلون بذكرى « أكبر » باعتباره الرجل الذى وصلت الهند فى وقته الى ذروة المجد والعظمة • ولذلك فقد ظل الشعب الهندى طوال عصور التاريخ يحكم نفسه

بنفسه ، وقد لايعرف الكثيرون أن القرية الهندية منذ أقدم العصور كانت تتمتع باستقلال ذاتى ، باستثناء الضريبة التى يجب أن تدفعها للملك أو الحاكم، فليس لهذا الملك أو الحاكم أن يتدخل فى شئون القرية التى تدار بطريقة جمهورية بحتة ، فشيوخها هم الذين يحكمونها، وهم الذين يتولون القضاء، وهم الذين يتولون رعاية شئون ومصالح أبناء القرية ٠٠ كل ذلك قد انتهى بدخول الانجليز الى الهند٠

فلم يكن هناك من هدف للشركة أو رجالها ، لم يكن هناك هدف لاى انجليزى يطأ قدمه أرض الهند الا أن يستنزف مايستطيع استنزافه من دم هذه البلاد لكى يبعث به الى الوطن ٠٠٠ الى الاباء والامهات والاخوات والعشيقات من الانجليز ٠٠٠استنزاف٠٠٠ استنزاف بكافة الوسائل ٠ بدأ فى أول الامر عن طريق التجارة ثم عن طريق النهب والسلب ، ثم تطور بعد أن أصبح السلطان للشركة ليصبح استنزاف الجهود والعرق والدم ، دم الهنود وعرقهم وجهدهم ، لم يكن هناك أى موجب للشفقة أو الانسانية ، لم يكن هناك أى جسر يربط بين الهنود وبين هؤلاء الانجليز الوافدين ٠٠٠ لقد كانت الهند بالنسبة لهم شيئا غريبا ٠٠٠ شيئا دون المزرعة ، دون المنجم ٠٠٠ انها بلاد مليئة بالحشرات وبالذهب ، ولم تكن هذه الحشرات سوى الشعب الهندى التعس ٠

ثورة سنة ١٨٥٧

وسرت روح الكراهية فى أنحاء الهند للانجليز ، والشعور بضرورة مقاومتهم واخراجهم من البلاد، ولكن ذلك كله كان بعد فوات الوقت، وبعد أن تمكن الانجليز من الهند ، ومن أمرائها ، ومن السيطرة على عناصر القوة فيها ٠ بعد أن أصبحت لهم جيوش جرارة من الهنود أنفسهم ٠ بدأت الثورة بتمرد بعض الجيوش الهندية التابعة للشركة ، ثم جاء الامراء لنجدة المتمردين ، وامتد لهيب الثورة الى أرجاء البنجاب والى ولايات الهند الوسطى ٠٠٠ وظهر مجاهدون من المسلمين والهنود

أمثال فيروز شاه ولاكشيمى باى والتى يسمونها «ملكة جهانسى» (١)

أنزلوا بالانجليز ضربات قاصمة ، ومرت لحظات بدأ الموقف فيهـا كأن كل شىء قد انتهى بالنسبة للانجليز، وأن هذا الذى بنوه فى مائة عام قد قضى عليه ولكن عناصر الاضمحلال فى الهند كانت أقوى من عناصر يقظتها ... فقد هب السيخ لنجدة الانجليز ... السـيخ الذين حاربهم الانجليز وضربوهم منذ ثمانى سنوات فقط وانتزعوا من بين أيديهم البنجاب ، هم الذين وضعوا أيديهم في يد الانجليز خلال ثورة سنة ١٨٥٧ وبمعونتهم وباخلاصهم ومعونة قبائل الجـركا ، أمكن اخماد هذه الثورة ونجا الانجليز من المصير المحتوم ... واذا عرفت أن أغلبية البنجاب هى من المسلمين وان المسلمين هم الذين حملوا لواء الثورة ضد الانجليز ، استطعت أن تفسر لماذا وقف السيخ الى جوار الانجليز ، ولماذا تولى السيخ وهم هذا الشعب المقاتل مهمة القضـاء على ثورة المسلمين .

ذلك أنهم تصوروا أنهم سيكونون أسعد حالا تحت حكم الانجليز .. هؤلاء الغرباء .. **انها ذات القصة التى شقى منها الشرق، ومازال يشقى منها فى كثير من أنحائه وأرجائه...** لقد دال ملك العرب فى الاندلس بهذا الاسلوب ، وتتحكم اليوم فرنسا فى شمال أفريقيا كلها بهـذه الروح ... وفي هذه الايام استطاعت فرنسا أن تخلع سلطان مراكش لا بجنود فرنسية ، ولكن بواسطة الجلاوى زعيم قبائل البربر ، والذى يؤثر أن يكون تحت حكم فرنسا من أن يكون تحت حكم سلطان من غير صفوف البربر ... واحكمى يافرنسا ، واحكمى يا دول الاستعمار ما تبقى فى شمال أفريقيا شىء يسمى عرب وآخـر يسمى بربر .

وبواسطة هذا الخلاف بين السيخ والمسلمين فى البنجـاب ، نجح الانجليز أخيرا فى قمع الثورة .

---

(١) أتيح لى أثناء اقامتى فى الهند أن أشهدفيلما ملونا يدور حول حياة هذه البطلة التى لم يزد عمرها عن عشرين سنة ، ومعذلك فقد حاربت الانجليز ، وأوقعت بهـم هزائم متكررة ، وهى تشبه فى كل هذهالنواحى «جان دارك» وقد حرقت جثتهـا بعد موتها جريا على عادة الهنود.فشابهتحتى فى نهاية الفيلم نهاية جان دارك .

ولقد كانت فرصة رائعة لتمدهم بالتجارب الذهبيـــة التي مكنتهم بعد ذلك من حكم الهند مائة عام فى هدوء وسكينة ··· فقــد رأوا أن الثورة لم تمتد الى الولايات التى يرأسها أمراء ، بل انها عنــدما وصلت الى هذه الولايات تولى الامراء تحطيمها بكل عنف وبكل قسوة ، ولذلك فقد عدل الانجليز سياستهم منذ ذلك التاريخ ، وبعد أن كان برنامجهم هو القضاء بالتدريج على هؤلاء الامراء وحكم الهنــد حكما مباشرا بواسطة جيوشهم وموظفيهم ، رأوا أن الابقاء على هؤلاء الامراء ليحكموا الهند لحسابهم هو طريق أهون وأيسر ، وما عليهــم الا أن يحفظوا التوازن وأن يوقعوا العداوة والبغضاء ، وأن يشحنوا بلاطات هؤلاء الامراء بالجواسيس والخونة لكى يحكموا الهند بغــير حاجة الى جيوش وأساطيل ، بل بواسطة الهنود أنفسهم وبتسليط بعضهم على بعض · لذلك فقد حكمت انجلترا الهند بواسطة الهند ··· بل حكمت العالم كله بواسطة الهند ··· فمن الهند عبــأت انجلترا فى الحربين العالميتين ٢ مليون من الجنود كانوا هم الذين دافعوا عنهــا فى كل مكان وفتحوا لها المواقع الحصينة فى كل مكان ·

ولا يعرف الكثيرون أن الانجليز لم يكن لهم فى الهند ـ في أي وقت من الاوقات ـ أكثر من عشرين ألف جندى انجليزى ، موزعين في أربع مناطــق فقــط ·

ضم الهند الى التاج

وكانت ثورة سنة ١٨٥٧ هى الحافز للبرلمان الانجليزى لوضــع حد لهذه المهزلة ، مهزلة ادارة قارة الهند بواسطة شركة انجليزية فأصدر قانونا بضم الهند الى ممتلكات التاج البريطانى وبتنصيب الملكة فيكتوريا امبراطورة على الهند · ويستبدل حاكم عام الهند بنائب للملك ، وهكذا بدأ الفصل الاخير من رواية الاستعمار الانجليزى فى الهند ·

ويحدثنا نهرو فى كتابه الرائع « اكتشاف الهند » عن الطريقة التى مسخ بها الاستعمار اقتصاد الهند ، والصدمة العنيفة التى أصيبت بها

الحياة الهندية ، فلم توقفها عن التقدم والتطور فحسب ، بل أسرعت باستكمال تدهور الهند الى درجة لم تكن تطوف بالذهن ٠

وقصة مسخ الاقتصاد الهندى وافقار الهند لا تبدو غريبـــة بالنسبة لنا نحن المصريين ، فقد اتبع الانجليز ذات القصة فى مصر واحدثوا فى مصر ذات النتائج ٠

عندما بدأ الانجليز اتصالهم بالهند فى مستهل القرن السابع عشر ، كانت الهند أمة منتجة من أعظم دول العالم انتاجا ٠٠ لا تنتج لنفسهـــا ولشعبها فحسب بل تنتج لاسواق آسيا وأسواق العالم كله سلعا معينة اشتهرت بها ٠

فالسيوف الهندية مثلا كانت هى السلاح الاول الذى يستعمل فى الحروب، حتى أن العرب وضعوا للسيف اسما مشتقا من مصدر انتاجه

والحرير الهندى لا يزال اسمه يدوى حتى ايامنا هذه كذكرى لهذا الماضى المجيد ٠٠٠ وكانت مهمة شركة الهند الشرقية هو أن تنقـــــل لانجلترا منتجات الهند ٠٠٠ ولذلك فلم تلبث انجلـــــترا ان غمرت بصناعات الهند واضطر الانجلـــيز أن يصدروا قانونا يحظرون به استيراد المصنوعات الهندية، وبدأت العملية العكسية عملية غمر الهند بالمصنوعات الانجليزية التى كانت قد بدأت انتاجها على النطاق الواسع باختراع الالات الحديثة ٠ فاغلقت دور الصناعة الهندية أبوابها اذ لم يكن باستطاعتها أن تقف فى وجه هذه المنتجات الحديثة ٠ ووجـد ملايين من الصناع الهنود انفسهم بغير عمل ، فاتجهوا صوب الريف وصوب زراعة الارض ، وقد كانت الارض مشغولة بفلاحيها القـدماء فزاد هذا التكدس فى الريف من الهبوط بمستواه ٠٠٠

وهكذا حدثت فى الهند حركة عكسية لهذا الذى كـــان يجرى فى انجلترا وفى أوروبا بصفة عامة ، فبينما كانت الهجرة من الريف الى المدن فى هذه الاخيرة كانت الهجرة فى الهند من المدن الى الريف ٠

وأوقف الانجليز ريح العلم فى الهند ، فاللغة الرسمية قد أصبحت الانجليزية والموظفون يجب أن يعرفوا الانجليزية ..

والعلم يجب أن يكون بالانجليزية. ولابد من انقضاء عشرات السنين قبل أن يحذق الهنود هذه اللغة الجديدة ... لغة الانجليز ليستطيعوا أن يتعلموا بها .

وبدأت الهند تتدهور بعد أن أصبح على رأسها حكومة لا تهدف الى اسعاد المواطنين وانما كل ما ترمى اليه هو استدامة حكمهم فى هدوء، وسلطان ولا سبيل لذلك الا بابقائهم فى الجهل والفقر والخـلاف .

مائة سنة ليسترد الهنود انفسهم

هزم الهنود آخر هزيمة عسكرية فى سنة ١٨٥٧ كما قدمنا باخماد الثورة ، ولذلك فقد تسرب اليأس الى النفوس من جدوى مقـاومة الانجليز . ولذلك فقد استسلم الهنود على اختلاف أديانهم، هنود ومسلمين للمصير الذى انتهوا اليه وارتضوا الوضع الجديد بكل ما فيـه من ذلة ومهانة .

وبدأ الانجليز يفتحون المدارس ، المدارس الانجليزية لتخرج لهم الموظفين الذين لا يستطيعون الاستغناء عنهم، ومع تعلم اللغة الانجليزية بدأ الهنود المسحوقين يطالعون الآداب الانجليزية ، وبدأوا يعشقون هذه الاداب ، ويهيمون بكل ما هو انجليزى ويقدسون كل ما هـو انجليزى .

وبدأت الرحلة من الهند صوب انجلترا ، فالانجليز أنفسهم فى حاجة الى أن يعلموا بعض الهنود فى انجلترا .. وعاد هؤلاء الهنود الذين عاشوا فى انجلترا الى الهند وهم يحملون آراء وأفكارا جديدة .. لقد شاهدوا فى انجلترا مدى سلطان الشعب ، ومدى مراقبته لاعمـال الحكومة ، وشاهدوا كيف تعمل الحكومة من أجل مصلحة الشـعب ..

وكان الفارق صارخا بين الطريقة التى تحكم بها الجزر البريطانية وبين الطريقة التى تحكم بها الهند .

واذا كان الهنود الذين سافروا الى انجلترا شاهدوا المدنية الغربية عن كثب ، هم عدد قليل ، فان المدنية الجديدة لم تلبث أن انتقلت الى الهند بكل حولها وطولها ولم يكن هناك مفر من ذلك . فالانجليز الذين يريدون استغلال الهند ، لم يكن باستطاعتهم الا أن يستعملوا مافى أيديهم من وسائل الاستغلال ، وبهذا كانوا ينقلون الحضارة الجديدة مرغمين الى الهند .

لقد أنشئت السكك الحديدية بكل ماتحمله السكك الحديدية فى طياتها من تقريب البعيد وتوحيد الشعب ، وتنشيط التبادل التجارى .. بل جاءت الصناعة الجديدة كلها الى الهند ، فأنشئت مصانع الجوت لاستغلال الجوت ، وأنشئت مصانع الغزل والنسيج . وبدأت طبقة جديدة من العمال تظهر فى الوجود ، وهكذا لم يكد القرن التاسع عشر يشرف على نهايته حتى كانت الحياة السياسية فى الهند بمعناها الحديث قد شقت طريقها الى الوجود على يد الرأسمالية الهندية الجديدة وطلاب الجامعات وعمال الصناعة .

وفى سنة ١٨٨٥ أنشىء المؤتمر الهندى ، وبدأ رحلته الكبرى التى ماتزال ماضية حتى الان فى الهند ، حتى بعد أن أخرجت الانجليز .. لاتزال ماضية لجعل الهند كما كانت فى القديم احدى دول العالم العظمى التى تساهم فى بناء المدنية والحضارة .

وقد تأخر المسلمون عن الاخذ بأسباب العلوم الحديثة والاقتصاد الحديث، لكراهيتهم للانجليز الذين سلبوهم السلطان وقسوا عليهم هذه القسوة ، فكرهوا كل ماهو انجليزى بل كل ماهو غربى . ولذلك فقد سبقهم الهندوكيون فى هذا المضمار . ليس فقط فى ميدان التعليم ، بل فى ميدان الصناعة والتجارة والاعمال ، وقد ساعدهم الانجليز على ذلك ليقضوا نهائيا على نفوذ المسلمين وآثارهم ، بل ان انشاء المؤتمر الهندى كان بايعاز من الانجليز لتحقيق هذا الهدف .

ولكن المسلمين سرعان ما اكتشفوا مقدار تخلفهم ، واكتشف الانجليز من ناحيتهم أنهم أضعفوا المسلمين أكثر مما ينبغى ، وان المؤتمر الهندى قد أصبح الهيئة السياسية الوحيدة التى تجذب حولها المسلمين والهنود على السواء وليس ذلك فى صالح الانجليز · فبدأوا يعدلون سياستهم ، وبدأ المسلمون يقبلون على العلم الحديث ، فانشأوا جامعة عليكرة ·· ثم شجعهم الانجليز على انشاء الرابطة الاسلامية ، فقام بانشائها رجال من طراز أغاخان · وبدخول الرابطة الاسلامية ميدان السياسة الهندية ، تضاعف النشاط السياسى الهندى ·

وجاءت الحرب العالمية الاولى ، فاذا بانجلترا لا تجد سوى الهند مصدرا لمعونتها ، فقويت الصناعات الهندية ، وأنشئت بها الصناعات الثقيلة ، وحذق ملايين من الهنود وسائل الحرب الحديثة ·

وبانتهاء الحرب العالمية دخل غاندى الى الميدان ، فانضم الى المؤتمر الهندى ، وبدأت المرحلة الاخيرة من الجهاد السياسى فى ذروته العليا ، فقد جاء غاندى بنفحات جديدة وبقوى جديدة ·

غاندى فى الميدان :

بعث غاندى كل ثقة الهند بنفسها ، أو بالاحرى ، لقد جعل الهند تجد نفسها من جديد ، وحول كل ماكانت الهند تشمئز منه الى موضع نصر وفخار ، لقد كان الهنود يخجلون من روحهم المسالمة ومن مظهرهم الضعيف فجعل ذلك هو سلاحهم فى حرب الانجليز فقد ابتدع سياسة عدم العنف · عليك بأن تقاوم الظالم بأن تجهر فى وجهه بأنه ظالم، ثم تحتمل بعد ذلك كل الذى يقع عليك دون أن تحاول البطش بمن يعتدى عليك · اذا ضربك انجليزى فاحتمل ضربه ولا تحاول أن ترد عليه ، اذا ضربك بالسياط فاحتمل ، اذا وضعك فى السجن فاحتمل، اذا قتلك رميا بالرصاص فاحتمل ، وإياك أن تبادله عنفا بعنف ·



غاندى يلبس الزى الشعبى الهندى

ولقد كان الانجليز طوال مائة سنة يضربون الهنود بالسياط ويسجنونهم ٠٠ فلم يأت غاندى بجديد، ولكن هذا الذى كان يتم بالامس وهو غير ملحوظ قد أصبح يجرى على ملأ من العالمين، وأصبح يجرى بعد أن رفع غاندى راية التمرد والعصيان المدنى على الانجليز والحكم الانجليزى ٠ وهكذا حول غاندى الضعف الهندى الى مصدر من مصادر القوة لانه خلق منه لونا من ألوان الكفاح ٠ وكان السواد الاعظم من الهنود لايرتدون سوى قطعة من القماش الرث وكان هذا منظر يخجل الهنود ويظهر مدى التخلف الذى هم عليه ، **فخلع غاندى ملابسه ، وهو خريج جامعات انجلترا وارتدى هذا الزى ٠٠ زى السواد الاعظم من الشعب الهندى ٠٠ قطعة من قماش يغطى جسده ، فتحول هذا الزى الذى يرتديه عشرات الملايين الى مظهر من مظاهر الجهاد الوطنى ٠٠ وفى الهند عشرات الملايين تعيش فى الحرمان ، يهددها الجوع بالفناء ، فراح غاندى يجيع نفسه، فامتنع عن أكل اللحوم وعن كل طعام مطهى ، ولخص طعامه فى لبن الماعز وبعض الخضر النيئة٠**



غاندى فى انجلترا

والفواكه ٠ وهكذا جعل من فقر الملايين فى الهند مظهـــر جهـــاد روحى ووطنى ونفسى ٠

وهكذا استطاع غاندى فى غمضة عين أن يرد الحياة الى هذه الملايين وأن يصبح معبود هذه الملايين وأن يحمل الدنيا كلها على التطلع صوب الهند باحترام وتوقير ، لان غاندى قد قدم للبشرية مثلا رائعـــا من هذه المثل الانسانية التى لاتوجد الا كل ألف سنة مرة ٠

وليس يتسع هذا الكتاب للتحدث عن غاندى وكيف بدأ كفاحه فى جنوب افريقيا لتحسين حال الهنود الذين كانوا يضطهدون ، وكيف تطور كفاحه فى الهند من مطالبة ببعض الاصلاحات المحلية ، **الى دعوة الى الاستقلال الذاتى، ثم الى دعوة الى الاستقلال الكامل٠٠ وأخيرا الى دعوة الى اخراج الانجليز جملة** ٠٠ ولم يكد يصـــدر هذا القرار لاول مرة ويصبح شعارا للهند فى عام ١٩٤٢ حتى لم يمض أربع سنوات ، أربع سنوات فقط ، حتى كان الانجليز يخرجون من الهند ٠

ولقد لخص لى هندى أثناء زيارتى لبومباى لماذا خرج الانجليز فى عبارات قليلة ، قال لى : لقد حكم الانجليز الهند بناء على رغبة الهنـــود أنفسهم ٠ لقد كانت ممزقة ، ومتعادية ، وكانت محرومة من الامان والطمأنينة ، فجاء الانجليز وتظاهروا بأنهم يعملون على حفظ السلام بين الهنـــود ٠

ولقد حفظوا السلام بالفعل ٠٠ وحفظوه طويلا جدا ، ولكن الهنود اكتشفوا فى نهاية الامر أنهم قد حصلوا على السلام فعـــلا ولـكنه سلام الموت ، فقد أصبحنا فيما يشبه الموت فقرا وجهلا ومرضا ٠ لقد منحت الادارة الانجليزية الهنود الامن ٠٠ أمن الموت فى هدوء فليس التاريخ الانجليزى فى الهند الا سلسلة مجاعات وأوبئة حتى أصبحت الهند أحدوثة العالم فى مستوى المعيشة المنحط ٠

وعندما أدرك الهنود هذه الحقيقة التقوا جميعا عند نقطة واحدة ٠٠ نقطة اخراج الانجليز ٠ ولم يكن للانجليز بعد ماوصـــلت اليـــه

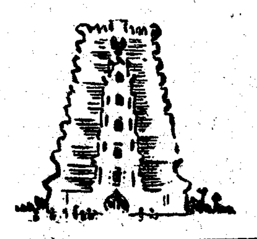
الهند من تطور أن تعارض مشيئة الهنود ، لقد تحولت الهنـد التى كانت مدينـة للانجليز ، الى دولة تداين انجلترا بثـلاثة آلاف مليون من الجنيهات ·

وأصبحت تملك من الاسلحة والاساطيل ما مكن انجلترامن الوقوف فى الحرب العالمية الاخيرة ، ولولا جيوش الهند وانتاج الهند لما استطاعت انجلترا أن تبقى يوما واحدا بعد اعلان اليابان للحرب · ولو أعلنت الهند الثورة على الانجليز لاستطاعت أن تفنى الانجليز بها فى أقل من لمح البصر ··· ولقد كان الانجليز من قديم الزمان يضعون السيخ أمام المسلمين، والمسلمين أمام الهند، والجوركا أمام الجميع·· ولكن هؤلاء جميعا قالوا للانجليز اخرجوا من بلادنا ·· فلم يكن يوسع الانجليز الا أن يخرجوا ·



أجل كان باستطاعة الانجليز أن تمد فى أجلها بضعة أعوام أخرى فى الهند ولكن ذلك ماكان يمكن أن يتم الابثمن باهظ جدا وبجهود وأموال لا قبل لانجلترا المنهوكة فى الحرب ببذلها ·· والنتيجة المحتومة هى هزيمة الانجليز فى نهاية الامر وخسرانهـم كل صلاتهم مع الهند ، فآثر الانجليز أن يعجلوا بالخروج من الهند مبكرين بضع سنوات ليحتفظوا بصداقة الهنود وبرؤوس أموالهم التى لا تزال لهم فى الهند وبصـلاتهم الاقتصادية الكبرى التى لا تزال بين الهنود والجـزر البريطانية· وهكذا أسدل الستار على الفصل الاخير من العـلاقات الانجليزية الهندية ، التى بدأت منـذ ثلاثة قـرون ونصف ··· منذ صدر المرسـوم بتأليف شركة الهند الشرقية ·

ومنذ قرنين الا قليل من الزمان عندما بدأوا غزوهم المسلح بانشائهم هذه القلعة فى كلكتا «قلعة وليم» سنة ١٦٩٠ . ما أعجب سير الزمن ... **فهأنذا أقف أمام هذه القلعة فى كلكتا فى يناير سنة ١٩٥٣ ناظرا الى هذا الماضى، نظرتى الى قصة أو رواية وقد لخصت هذه القصة فى بضع صفحات . ومع ذلك فأى آلام تحملها ملايين من البشر . وأى دموع سكبت وأى دماء أريقت ، وأى مؤامرات وأى انتصارات، وأى انكسارات ، وأى تقلبات دارت على صفحة الزمن قبل أن تصل الى هذه النهاية . أما الآن وقد انتهت فهى ليست سوى قصة نراها فى السينما وقد نطالعها فى كتاب أو تقص علينا للعظة والعبرة أحيانا ، وللمتعة أحيانا أخرى ، ولكنها ليست سوى ... قصة .**



الفصل الخامس
فى بنارس والى بنارس

فى قطار السكة الحديد

ما سمعت محاضرة من متحدث زار الهند الا وقص علينا ماذا رأى فى بنارس ، وما طالعت كتابا عن الهند الا ووقف كاتبه عند بنارس ، وهناك من يقولون دائما ان من لم ير بنارس لم ير وجه الهند الحقيقى ، وبالاحرى وجه الهند القديمة التى لاتزال تعمل فى الهند الجديدة والتى ليست سوى استمرار طبيعى لها . وأشهد اننى اذا لم أوفق فى زيارة بنارس لخرجت بفكرة خاطئة عن الهند ولما وجدت ما يحفزنى من جـــديد لمطالعة الديانة الهندية لارى الفارق العظيم بين الدين كما يظنه ويفهمه العوام ... وبين الذين يفهمونه على حقيقته .

لقد مرت بى لحظات فى بنارس جعلتنى أمتلىء بالاشمئزاز والتقزز

مرت بى لحظات جعلتنى أنتفض من هول التدهور العقلى والنفسى الذى يتردى فيه الانسان كاثر من آثار الجهل ولكن هذه اللحظات نفســـها هى التى جعلتنى أفكر ، وأفكر لاقارن بين هذه المظـــاهر وأشباهها فى الديانات الاخرى ، وفى كل مكان ولاستخلص من ذلك كله نتيجة واحدة هى التى أومن بها وأستطيع أن ألقى بها ربى فى أى ساعة وأى دقيقة يقررها لهذا اللقاء ..

ولقد ذكرت من قبل اننى أخذت السكة الحديد لرحلتى الى بنارس

وعلى الرغم من رغبتى الشديدة فى المحافظة دائما على البساطة فى هذه الرحلات والبعد عن الاسراف فقد اضطررت لان أقطع تذكرتى فى الدرجة الاولى لان صاحبى يقف ورائى بالمرصاد ويحذر ويقدر ٠٠ انك لست هنا فى أمريكا أو فرنسا أو انجلترا حتى تركب الدرجة الثالثة أو حتى الثانية ٠٠٠ ان الامراض فى الهواء ٠ ان الاوبئة فى كل مكان ، ان القذارة هى الطابع الرئيسى لكل شىء ٠٠ لا أمل لك فى النجاة الا أن تنزل فى أكبر الفنادق وأن تستعمل السيارة الخاصة وأن تركب الدرجة الاولى فى القطار ، ولا شك أن صاحبى واهم فى ذلك ومبالغ ، فالمستوى العام للنظافة فى مدينة كلكتا لا يقل عنه فى مصر بأى حال من الاحوال ، ولست أريد أن أقول انه يزيد لئلا أحرج مواطنى ، ولكنه حكم الانجليز فى الهند كما ذكرت من قبل قد وصم الهند فى هذه المائة عام الماضية هذه الوصمة ، وانها موطن الاوبئة ، ومنها تسرى الكوليرا والطاعون شرقا وغربا ، فلا عجب اذا كان صاحبى الذى عاش فى نيويورك وواشنطون ولندن فى فزع دائم من الكوليرا والطاعون وحمى التيفود ، وعلى ذلك فقد فرض على أن تكون حياتى فى كلكتا فى أعلى مستوى ٠٠٠ ولما كانت اقامتى بها لا تتجاوز بضعة أيام ، ولما كنت لم أجىء الى الهند مجاهدا أو مناضلا وانما فى شبه عطلة ، فقد تقبلت هذا الوضع برضاء ، خاصة وانى كما ذكرت فى القسم الاول من هذه الرحلة لم أحقن ضد التيفود أو الطاعون كما هو شأن كل من يزور الهند ٠ ورضيت حتى آخر لحظة أن أواصل هذه السياسة فأسافر فى الدرجة الاولى ، وكان مجرد فكرة سفرى بالسكة الحديد تملأنى بهجة، فطالما سمعت عن سكك حديد الهند وانها شىء عظيم فى حياة الهند وان الانجليز عندما يريدون أن يتحدثوا عن رسالتهم العظيمة فى الهند لا يجدون ما يقولونه الا الاشارة الى السكك الحديدية الهندية ، وكيف انهم أنشأوا فى الهند أعظم شبكة للسكك الحديدية فى آسيا كلها والتى يبلغ طولها ٤٣٫٠٠٠ ميل والتى لا توجد شبكات أخرى تفوقها الا فى الولايات المتحدة، وفى قارة أوربا مجتمعة،

وشبكة الاتحاد السوفيتى ، واذا كانت الهند تنهض من جديد كأمة واحدة متحدة لاول مرة فى التاريخ منذ أربعة قرون ، فان الفضل فى ذلك سيكون للسكك الحديدية ، واذا كانت الصناعات الثقيلة قد وجدت طريقها الى الهند ، فالفضل فى ذلك للسكك الحديدية ، واذا كان قد وجد فى الهند طبقة ضخمة من العمال الذين هم عصب الحياة الاجتماعية الحديثة ، فكل ذلك بفضل السكك الحديدية ، وترفـــع الهند رأسها فى هذه الايام بين دول الصناعات العظمى ٠ لا لانها تنتج المنسوجات أو تغزل القطن أو الجوت ، لا لانها تنتج الدراجات أو منتجات البلاستيك ، لا لانها تزرع الشاى وتعبئه ٠٠ بل لانهـــا تنتج قطارات السكك الحديدية ٠ وقد تم انشاء هذه المصانع اللازمة لذلك في عامين فقط بعد الاستقلال ٠ وقد بدىء العمل فى انشـــاء هذا المصنع الحكومى فى « شيتا رانجان » فى سنة ١٩٤٨ وقد تكلف انشاؤه ١٥٠ مليون روبية أى خمسة عشر مليونا من الجنيهـــات الاسترلينية تقريبا ،ويتألف من ثمانية عشر مصنعا ضخما مقسمة لاقسام ثلاث ، ابتداء من انتاج الحديد والصلب والنحاس ، حتى عمل القاطرة، وفى سنة ١٩٠٥ أخرج المصنع باكورة انتاجه وهى ٥٤قاطرة، ٧٠ ٠/٠ من قطعها مصنوع فى الهند ذاتها وبمواد هندية ٠٠ وان هو الا عام آخر أو عامان حتى ينتج ١٢٠ قاطرة فى العام مصنوعة كلهـــا مائة فى المائة فى الهند ٠

جهاد غاندى والسكك الحديدية

على أن ذلك لم يكن وحده هو الخاطر الذى كان يملأنى شوقا لركوب السكك الحديدية الهندية بل كفاح غاندى الطويل واتصاله الوثيـــق بالسكك الحديدية هو الذى كان يحفزنى لركوب ودراســـة الظروف الخاصة بركابها ٠

لقد ولد كفاح غاندى فى عربة سكة حديد ، ولولا هـــذا الحادث العارض لتغير تاريخ حياة غاندى وبالتالى تاريخ حياة الهنـــد ٠٠٠ **وأنا لست ممن يقولون بأن حوادث التاريخ العظمى تنشأ من مصادفات**

أو حوادث عارضة ، ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن الظواهر تحاول أن تغرر بنا وتخدعنا فى هذه القضية وتصور لنا أن حادثا عارضا هو الذى غير مجرى التاريخ • فمن المتفق عليه ومما لا يماري فيه انسان أن غاندى قد غير مصير الهند بجهاده ، ويحدثنا غاندى انه كان أبعد ما يكون فى شبابه وحتى انتهى من دراسته فى لندن عن فكرة المقاومة من أى نوع كان ، فضلا عن أن تكون مقاومة الانجليز والحاكمين ، انه استهل عمله كمحام عاد يلتمس الرزق والكسب من مهنته ، فلما انتدب للسفر الى جنوب افريقيا للمرافعة فى احدى قضايا الهنود بهـا لبى الدعوة وهو خالى البال عن الدور الضخم الذى ينتظره فى جنوب افريقيا ، ولما وصل الى شاطىء افريقيا واستقل القطار الى المدينة التى يقصدها ــ وكان قد ابتاع تذكرة فى الدرجة الاولى ــ اذا «بالكمسارى» يطلب منه أن يذهب الى الدرجة الثالثة حيث المكان المقرر للهنود ، وعبثا حاول غاندى أن يحتج على ذلك وأن يثبت انه محام وان معـه



تذكرة تخول له الجلوس فى الدرجة الاولى • ولقد أصر الرجـل على ضرورة مبارحته للدرجة الاولى وانه سيستخدم القوة اذا لم ينفذ الامر بسلام ، ويقول غاندى ان خاطرا ومض فى نفسه كوميض البرق أو الكهرباء ، أن يرفض وأن يقاوم هذا الظلم مهما احتمل فى سبيل ذلك من آلام • فأعلن الكمسارى انه لن يبارح مكانه ، فلم يكد القطار يصل

الى احدى المحطات ، حتى استعان الرجل برجال البوليس الذين قذفوا بغاندى وأمتعته الى رصيف المحطة ، التيغادرها القطار مخلفا غاندى فى هذه المحطة التى لا يقصدها ولا يعرف فيها أحدا ، ولا يعرفه فيها انسان ، وظل غاندى فى ذات البقعة التى قذف به اليها كما ظلت أمتعته مبعثرة على الرصيف حيث قذف بها ، واشتد البرد بغاندى فقد كان الوقت شتاء والساعة متأخرة من الليل ، ومع ذلك فلم يتحرك من مكانه ليفتح احدى حقائبه ويخرج منها معطفا يتدثر به ... لقد ظل غاندى فى مكانه ساهما لا يعرف كيف يتصرف وماذا يفعل بحيث لا تتأثر كرامته ، وفى هذه اللحظة كان غاندى يولد من جديد ، كان غاندى الزعيم ، وغاندى المكافح، وغاندىالقديس، يولد لان حياته منذ هذه اللحظة الى أن مات كانت كفاحا متصلا ضد الظلم والطغيان والاستعمار والاستعباد. وكانتمعركتهالاولى فىجنوبافريقيامعمصلحة السكك الحديدية وحول السكك الحديدية ، والسماح للهنود بركوب الدرجة الاولى ... وقد تطورت معاركه فى جنوب افريقيا بعد ذلك. ثم لم يلبث أن انتقل الى الهند بعد الحرب العالمية الاولى ، فبدأ كفاحه من جديد من هذه النقطة ، نقطة السكك الحديدية . لقد آلى على نفسه أن لا يركب الا فى الدرجة الثالثة ، ويا لهول الدرجة الثالثة فىسكك حديد الهند كما يصفها غاندى . هذا الزعيم المثقف والمحامى الناجح يركب فى الدرجة الثالثة، وسط أكداس من أفقر الطبقات منالهنود، هذا مصاب بالبرص، وهذا مصاب بعشرات الامراض ، وهذا لا يخرج عن كونه كتلة من القذارة، ولميكن ذلككله بالذى يشغل بال غاندىقدر ما كان يشغله عربة السكك الحديدية وقد تحولت بحسب تعبيره الى « مبصقة كبرى » ، فكل الركاب يبصقون على الارض وعلى الجدران وفى كل مكان . بل ويتبولون ويغيطون كذلك ، فالرحلة فى السكك الحديدية طويلة تستغرق الليل باكمله . وفى كتاب حياة غاندى كما كتبه بنفسه صفحات متعددة يصف فيهاهذه الحالة الشنيعة التيكانت عليها عربات الدرجة الثالثة والتى آلى على نفسه أن لا يركب سواها ليعيش مع الشعب ويحيا كحياة الشعب .

وراح غاندى يكتب ويدعو لضرورة العناية بعربات الدرجة الثالثة ويستحث شركات السكك الحديدية والحكومة على وضع النظم التى تصلح من هذه الاحوال ، وراح يدعو مواطنيه المتعلمين والمثقفين أن يستعملوا فى تنقلاتهم الدرجة الثالثة ليعلموا الشعب القواعد الصحية وقواعد النظافة لانه بغير ذلك لا سبيل لاصلاح هذه الحال .

وغنى عن البيان أن دعوة غاندى هذه لم تؤت ثمارها الا بعد ثلاثين سنة ، ولكنه فى خلال ذلك ظل يعانى هذا الجحيم ، وكم حدثته نفسه أن يعدل عن هذه الخطة لكثرة ما يعانيه من رحلاته فى السكك الحديدية ولكنه كان يستأنف عزمه واصراره الى أن جاءت الساعة التى أصبح فيها زعيما للهند ومهاتما — أى قديسا — وعرفه الشعب بالثانى ، فأصبح الامر هينا له بطبيعة الحال ، فلم يعد الناس يضغطون عليه ليزهقوا أنفاسه ، بل لم تعد العربة التى يركبها مبصقة أو مبولة لان ركابها جميعا من صحبه وأتباعه .

وهكذا ارتبط كفاح غاندى فى أوله وفى ابانه بسكك حديد الهند فلا عجب اذا اهتممت بركوب السكك الحديدية .. ولكن شتان بين ما طالعته عنها فى كتب غاندى وما عاينته بنفسى ، ومرجع ذلك هو انقضاء قرابة نصف قرن تقريبا على هذا الذى يصفه غاندى فى كتبه عن السكك الحديدية الهندية والشوط الكبير الذى قطعته الهند فى هذا النصف قرن ، سواء كثمرة لجهاد غاندى فى حياته ، أو من آثار الاستقلال بعد اعلانه .

كانت أرصفة المحطة وساحاتها الخارجية فى كلكتا هى التى تشبه هذه الصورة التى يتحدث عنها غاندى ، من حيث الازدحام والاكتظاظ وسوء الحال ... ولكنه ليس ازدحام الركاب أو المسافرين ، ولكنه ازدحام هؤلاء المهاجرين الذين وفدوا على كلكتا بعد تقسيم الهند الى الهند والباكستان ... لقد هاجر قرابة ثمانية ملايين من البنغال الشرقى الى الهند ومن هؤلاء الملايين أفراد من الاغنياء بطبيعة الحال ومئات وألوف من الطبقة الوسطى الذين مهما كان الذى تركوه خلفهم

فقد حملوا معهم ما يكفى لستر حالهم ، ولكن الكثرة الغالبة من هذه الملايين هم من الفقراء الذين أصبحوا لا يملكون شيئا والذين اتخذوا من محطة السكة الحديد مأوى لهم حتى تجد الحكومة حلا لمشكلتهم ، ولقد قطعت الحكومة شوطا كبيرا فى هذه الناحية ولكن محطة كلكتا وأرصفتها لا تزال مزدحمة بهذه العائلات والاسرات التى تجد هذه الحياة القاسية •

أما القطار نفسه فلم يكن مزدحما •• ولقد تعمدت أن أنظر فى داخل عربات الدرجة الثالثة فوجدتها تشبه عربات الدرجة الثالثة عندنا وظروفها لا تختلف عن الظروف السائدة فى عرباتنا وخاصة الريفى منها أو الذاهب الى الصعيد • والدرجات هناك أربعة • الثالثة، والمتوسطة ، والثانية ، والاولى والسواد الاعظم يستخدم الثالثة ، والطلاب وصغار الموظفين والتجار يستخدمون المتوسطة ، ومن هم أكبر من ذلك يستخدمون الثانية ••• وظلت الاولى كما حدثتك من قبل وقفا على الانجليز فى أغلب الاحيان

وكان يركب معى فى الصالون رجل هندى استطعت أن أعرف فيما بعد من تصرفاته انه مسلم وكانت هناك سيدة هندية ومعها ابنها الصغير، وبدأت الخواطر تملأ نفسى محاولا تصوير موقف السيدة، أهى شجاعة ان تسافر طول الليل فى حجرة حديدية مغلقة مع رجلين لا تعرفهما ، أم استهتار منها وفرنجة الى حد التطرف ، أم هو الهدوء والاطمئنان الذى يطبع الحياة الهندية كلها • لقد أدهشتنى المرأة الهندية بأكثر مما أدهشتنى أية امرأة فى العالم • وستظل المرأة الهندية نسيج وحدها بين نساء العالمين، لطالما سمعنا عن جهاد نساء الهند الى جوار رجالهن فى حركة التحرير ، ولقد أدهشت المرأة الهندية العالمين بتمسكها بلباسها القومى وهو «السارى» فظهرت به فى كل عواصم الدنيا سواء كانت طالبة تدرس فى لندن أو باريس أو نيويورك أو كانت صحفية أو كانت زوجة كبير أو صغير •• الجميع بدون استثناء يلبسن «السارى» هذا اللباس الجميل الذى يضفى عليهن جمالا وحشمة ووقارا لم تقع العين على امرأة هندية فى غير هذا اللباس •• والعجيب فيه

انه ذات اللباس الذى كان يلبس منذ ألوف من السنين • لن تجد هندية فى طول البلاد وعرضها قد كشفت عن ساقها أو وضعت المساحيق فى وجهها وليس سوى هذه القطعة الحمراء التى توضع على الجبهة هو كل زينة المرأة الهندية ، ملكة كانت أو امرأة عادية، صغيرة أوكبيرة، فقطعة حمراء على الجبهة وهذا هوكل ماهنالك•• ذلك شيء عجيب •• فقد رأينا المرأة تتطور فى كل مكان ، فى أشد البيئات رجعية ، رأينا نساء العرب والمسلمين وغير المسلمين يحتذين بالاوربيات فى زينتهن وملابسهن وفى تصرفاتهن • أما فى الهند فالكل فى هذا الزى المحتشم والكل فى هذا الزى الوطنى بغير زينة الا هذه القطعة الحمرء على الجبهة • ومن قبل رأيتهن فى عواصم العالم الكبرى وهن موضع التبجيل والاحترام • لقد وجد هنود من الرجال خلعوا ملابسهم الهندية وارتدوا الملابس الاوربية وعاشوا عيشة أوروبية بحتة ولكن المرأة الهندية لم تفعل ذلك فى أية لحظة من اللحظات ••• ومع ذلك فالمرأة الهندية قد أقبلت على التعليم الى أرقى الدرجات وانخرطت فى السياسة الى أبعد الحدود واليوم تمثل الهند فى هيئة الامم سيدة هى من مفاخر الهند وهى « فيجاما لاكشيمى » شقيقة البانديت نهرو وسيظل اسم ساروجينى نايدو يدوى طويلا فى تاريخ الهند كمعاونة من أكبر معاونى غاندى فى حركته لاخراج الانجليز من الهند وعشرات الآلاف من المتطوعات لاقوا نصيبهن من السجن والاستشهاد فى خلال المعركة فما أعجب هذه المرأة الهندية وما أحقها من أن أطأطيء لها الرأس اجلالا واحتراما ، فهى شيء نسيج وحده بين نساء العالمين •

وكانت هذه السيدة التى تزاملنا فى الصالون صورة من هذه الهندية الجديرة بالاحترام • لقد ظلت تتحدث معنا قبل أن يحين وقت النوم ومن الحديث أدركت انها كانت فى انجلترا ، وتعلمت هناك وانها تدرس الفلسفة وتعليم الفلسفة ورحنا نتحدث فى بعض المسائل الدينية أو الفلسفية ثم جاء وقت النوم فأنامت طفلها ثم

نامت الى جواره فى هدوء واطمئنان ، فى جو مشبع بالجد والعفــاف والاحترام •

وحق الله أن هذا لشيء عجيب، هذا شيء جدير بالتسجيل، اننى اعرف انه من أكبر الاخطاء ان يشهد الانسان حادثا فرديا فيستخرج منه قاعدة عامة وقد تكون هذه السيدة فئة بين السيدات ، قد تكون مثالية لا ينبغى أن تؤخذ كأنموذج لكل سيدات الهند ، ومع ذلك فان الذى رأيته من جو الاحتشام والوقار الذى يسود المدن الهندية فى علاقات الرجال بالنساء فلا خلاعة ولا تهتك ولا غزل ولا مطاردات أو مناوشات •••• كل ذلك يجعل من حــق المرأة الهنــدية ان أعتبر هذه الام الشابة التى ركبت مع رجلين القطار ليلا بأكمــله فحملتهما على أن ينظرا اليها بتوقير واحترام رمزا عليها وعنوانا صادقا على المستوى الرفيع من الفضيلة الذى تعيش فيه المرأة الهندية •

وظل القطار مندفعا بنا وكانت الليلة مقمرة فرحت أنظر من النافذة الى المناظر فى الخارج فكانت كلها مزارع أشبه بمزارعنا وقرى أشبه بقرانا مبنية من الطين كقرانا • ثم واصلنا لسفر حتى أشرق الصباح•

فى بنارس

وتطلعت الى اسم المحطة بمجرد وقوف القطار لارى اسم بنارس فلم أجدسوى **كلمة « كاشى » وهو اسم بنارس الحقيقى كما هى معروفة عند الهنود ، أما اسم بنارس فهو تحريف عن كلمة فارناس وهــو من صنع الانجليز وقد اشتهرت فى العالم الحديث بهذا الاسم ، وهــذا دأب الانجليز دائماً عندما يحاولون مسخ معالم التاريخ القديم لاى أمة من الامم ليجعلوا حياتها لا تبدأ الا باحتلالهم •**

ومن المحطة ركبنا سيارة أخذتنا الى أحد فنادق الدرجة الاولى ولم يكن هناك ما يلفت النظر ، فالمنطقة ذات طرقات جيدة والمساكن قليلة ، وهذا هو الحى الذى بناه الانجليز لانشاء الفنــادق وبعض الثكنات والمنشئات الحكومية وهو بطبيعة الحال شيء لا يمت الى

بنارس بصلة بل لا يمت للهند كلها . لقد كان الفندق الذى نزلت فيه كأنه أحد الفنادق فى اسكتلندا أو مقاطعات ويلز ، فقطع الاثاث من ذات الطراز الانجليزى العتيق والصور المعلقة على الجدران كذلك . كل ذلك كان يؤكد هذا المعنى كما لو كنا فى أحد هذه القصور القديمة . وتم الاتفاق بينى وبين أحد الادلاء وسائقى التاكسى على مشاهدة بنارس طبقا لهذا البرنامج الموضوع لزيارتها ويتألف من ثلاث أقسام ـ زيارة المعابد والهياكل المختلفة ـ واستعراض جبهة المدينة على نهر الكنج ـ والقسم الثالث هو زيارة مدينة « سارنات » حيث عاش بوذا وبدأ تعاليمه فى هذا الوجود .

واقترح الدليل ان نبدأ بزيارة النهر وبدأنا رحلتنا اليه وسارت السيارة فى هذه الشوارع النظيفة الخالية من المبانى ثم دخلت الى نطاق المدينة وبدأت الشوارع تضيق وتكتظ وتتعرج ، ثم بدأ المنظر بكل روائه وبهجته ، مدينة هندية من صميم الهند ـ فالعربات التى تجرها الثيران تزحم الطريق والجموع بملابسها الوطنية وبذقونها المسترسلة أو برؤوسها الحليقة وبأجسادها النحيلة العارية ـ ثم وصلت السيارة الى حيث لا تستطيع أن تتقدم وكان علينا ان نترجل لنقطع ما بقى من رحلتنا سيرا على الاقدام .. وبدأت أشعر اننى أعيش فى جو مألوف لدى وقد عشت فيه من قبل ـ انه جو مدينة مكة خلال موسم الحج . هذا الزحام وهذا الشعور المسيطر على الجميع ، شعور الاحساس بالقداسة وانهم يقومون بواجب دينى ، ودواب الحمل الممتزجة بالناس والدروب الضيقة .. كل ذلك هو مكة .

ونفذنا الى درب ضيق وبدأنا نهبط عددا من الدرجات قد تزيد على المائة وكان ذلك كله على شاطىء النهر . فمدينة بنارس تعلو فوق النهر أكثر من مائة قدم وللوصول الى الماء فى غير أيام الفيضان لابد من نزول كل هذه الدرجات التى تمتد على طول الشاطىء ويطلق عليها اسم « جات » وأخيرا وصلنا الى صفحة الماء فوجدنا عددا من القوارب فى انتظار الاستعمال . فأخذنا واحدا من هذه القوارب وفى كل قارب «كبينة خشبية صغيرة» للجلوس داخلها فى فترة الابكار أما والجو

صحو ومشرق وجميل ـ فقد جلسنا على ظهر هذه الكابينة فوق كراس عادية والتهمت عيناى منظر بنارس وقد امتدت على شاطىء النهر في شموخ وجلال ـ وهو منظر فريد لا أحسب ان له مثيلا في أي بقعة أخرى في العالم سواء في الشرق أو في الغرب ٠ هذه هي الهند القديمة ـ هذه هي هند ألوف السنين ـ هذه هي الهند التي لم تمسسها يد الانجليز ولم تتسلل لها الحضارة الحديثة الا من خلال القطار الذى حملنا اليها ٠ هذه هي بنارس وهذا هو نهر الكنج في أقدس جزء منه ٠ ان نهر الكنج كله مقدس من المنبع حتى المصب أى طوال ١٤٤٥ ميل فلماذا كانت بنارس بالذات هي مدينة الخلاص « كاشى » ؟؟ ككل المسائل التى تتعلق بالاديان هذه مسألة لا جواب عليها ،فيقولون ان نهر الكنج يسير دائما من الجنوب الى الشمال وعند بنارس يغير هذا الاتجاه فيسير من الغرب الى الشرق ولكن ذلك ليس الا محاولة لتعليل أمر يجب أن يتقبله الانسان بغير تعليل ٠٠ وبنارس هي أول مدينة خلقت في الدنيا ـ هكذا تقول كتب (الفيدا) المقدسة وسكنها « سيفا » آله العالمين وكذلك فان بنارس هي مقر عبادة سيفا وله أقيمت الهياكل والمعابد في كافة أرجائها وكان منظرها يبدو رائعا وشيئا لا مثال له في الشرق أو في الغرب فهذا شاطىء يتألف من مدرجات مبنية تبدأ من الماء وتظل تتدرج حتى تصل الى القصور الشامخة المبنية في نهايتها وهى قصور أشبه ما تكون بالقلاع ولكنها قلاع لم تعد للحرب والفتك بل أعدت للدفاع عن نفسها ضد النهر المقدس عندما يفيض ويرتفع ماؤه مئات من الاقدام ولذلك فقد بنيت جدران هذه القصور وكأنها قطعة من الجبل الصماء حتى لا تتأثر بالمياه المتلاطمة وتؤلف هذه القصور العالية سلسلة متصلة الحلقات فكل أمراء الهند لابد أن تكون لهم قصور على شاطىء الكنج في «كاشى» المقدسة ليمضوا بها بعض فترات من السنة يتطهرون فيها من أدرانهم ومفاسدهم لينالوا المغفرة عما فعلوه ، ولكى يعيشوا فيها ما بقى لهم من العمر ليكفروا عن ذنوبهم ، وفي الاحوال كلها ليموتوا في المدينة المقدسة ويحرقوا على شاطىء الكنج ويلقى برماد جثثهم الى

الماء وبين هذه القصور معابد صغيرة لا حصر لها ولا عـدد أقيمت لمختلف الآلهة ولكنها كلها قد بنيت على الشاطىء المرتفع وتنحدر الى الماء بهذه المدرجات العديدة والتى تقف عليها عشرات الالوف من الناس لتستحم فى مياه الكنج المقدسة ومهما ارتفعت المياه فستظل هذه المدرجات بحيث يستطيع الناس أن يقفوا عليها ويستحموا ولما كانت زيارتى فى غير أيام الفيضان فقد كانت هذه المدرجات الضخمة بادية بكل جلالها تتوجها القصور والمعابد ذات الجدران الشامخة .. وهذا هو منظر بنارس كما يراه الانسان من النهر وقد كانت الصورة ناقصة بعض الشىء فلم تكن هناك هذه العشرات من الالوف التى تستحم بمياه النهر فلكى يراها الانسان لابد أن يبكر عند الشروق أو ينتظر حتى الغروب ففى هذين الوقتين من النهار يفد كل سكان بنارس وكل الحجاج الذين جاءوا الى بنارس لكى يستحموا فى النهر المقدس فيصبح المنظر شيئا له العجب وخاصة وان الناس تنغمس فى الماء سواء كانوا رجالا أو نساء بملابسهم المختلفة الالوان فيصبح المنظر وكأنه صورة زيتية صارخة الالوان ....

احـراق الموتى

على ان ما أزعجنى بل وصدمنى هو هذا المنظر الغير مألوف لنا .. منظر احراق جثث الموتى والدخان واللهيب المتصاعد من أجسادهم ، وكيف تتم هذه العملية بدون انقطاع ليلا ونهارا وقد ذكرت من قبل ان الهنود يؤمنون بانتقال الروح بعد كل وفاة الى جسد جديد وهـم يعتبرون هذا التقمص لعنة يجب التخلص منها ، ويعتقدون أن أجسادهم لو أحرقت فى بنارس ثم قذف بها فى النهر فانهم ينالون الخلاص فـلا يبعثون من جديد بل يصلون الى مرتبة « الزفانا » حيث السـعادة الدائمة .

شجع الاستعمار الانجليزى فى الهند بعض التقاليد الفاسدة على الانتشار ، ومن بينها ان تحرق الزوجة بعد موت زوجها ..

ولم يلغ هذا التقليد الفاسد الا بعد ان ثار الضمير العالمى على الحكم الانجليزى ، فابطلت هذه العادة فى سنة ١٨٢٩





فالموتى يجاء بهم محمولين على أعواد من الخشب ثم يغمسون فى مياه النهر ليتطهروا ثم يوضعون على كومة من الخشب وتوضع فوقهم بعض الزهور ثم تشعل النيران حتى تأتى على الجسد والخشب معا ، ثم يجمع الرماد المتخلف ثم يقذف به فى النهر وهذه المراحل كلها يراها الانسان فى نظرة واحدة الى المكان المعد للحريق وهو ما رأيت فارتعد جسدى بالغثيان والذعر فذلك منظر لا عهد لنا به ، هؤلاء أشخاص يحملون بعض الموتى فى طريقهم الى شاطىء النهر وهؤلاء بعض الموتى يغمسون فى ماء النهر وهؤلاء بعض الموتى موضوعين على كومة الخشب ولم يبدأ احراقهم بعد ، وهذه النار المشتعلة هى المرحلة الاخيرة فى احراق بعض الجثث .. وكان ذلك كله فوق احتمالى فقلت للدليل وقائدالزورق حسبنا هذا القدر وعد بنا من هذا المكان . وبدأ فكرى يضطرب .. كيف يقذف برماد هذه الاجساد الى النهر ومع ذلك فالناس تستحم فيه على بعد خطوات .. بل انهم يغسلون ملابسهم وأوانيهم من هذه المياه ، بل انهم – وياللطامة الكبرى – يشربون من هذه المياه المقدسة ....

وليس يقذف في النهر بالرماد فحسب، بل ان القديسين من الهنود لا يحرقون بل تلقي جثثهم في النهر ، بل ان جثث الإبقار تلقى في النهر كذلك بعد موتها ٠

والهنود يؤمنون بأن مياه النهر تشفي من كل داء ، وانهم لا يمكن بحال من الاحوال ان يصابوا بسوء من مياه النهر ٠ وكان منظر الشاطيء في الناحية الممتدة الى يسار النقطة التى ابتدأنا منها يتألف من ذات المنظر ولكنه يمتاز بمنظر المسجد مسجد أورانجزب آخر أباطرة المغول العظام ٠ وقد راعني ان يكون المسجد هكذا مهيمنا على القصور والمعابد ويؤلف الذروة من مدينة بنارس ٠٠ وكان ذلك شيئا يستلفت النظر، فلقد سمعنا عن تعصب الهندوس ضد المسلمين وسمعنا عن هذه المذابح التي حلت بالمسلمين عقب التقسيم ولكن هذا المسجد هناك في بنارس وهو يتحلى بقبابه ومئذنته الشامخة، وسط معابد الهندوكيين وعلى ضفاف الكنج المقدس ، ليس وراء ذلك دليلا على ان الهنود يفوقون العالمين من حيث تصورهم الديني والذى يجعل الاديان كلها دينا واحدا ولذلك لا يميز بين معبد ومعبد للرب ٠

وكان من الطبيعي أن أطلب من الدليل أن نصعد الى هذا المسجد ونظر الدليل الى مئات الدرجات التى تفصلنا عنه وقال لي هل تصعد كل هذه الدرجات ، قلت له ذلك أمر لابد منه ورحنا نرتقي الدرجات ونسير في دروب متعرجة ، وأحيانا مظلمة حتى وصلنا القمة٠٠ ودلفنا الى المسجد فأسرع الرجل الواقف هناك والذى يمسك بسلاح نارى يتفحص وجوهنا خوفا من أن نكون من الراغبين في الاعتداء على المسجد ٠ وياله من مسجد مبنى من الحجر الرملي الاحمر والذى يجعل لمساجد ملوك المغول في أنحاء الهند روعة أى روعة ٠

ولاورانجزب قصة محزنة، هي التي أدت الى انهيار امبراطورية المغول وتحمل هذا المسجد طابع هذه القصة ٠ لقد كانت سياسة جده « أكبر » هي توحيد الهند كلها والتقريب بين الاسلام والهندوكية وعمل لغة تقرب بين لغات الهند ، وعلى ذلك فقد وجدت فيه الهند ملكها

الاكبر على اختلاف أديانها ونحلها وأفكارها .. ولكن أورانجزب لم يسر هذه السيرة بل تصور ان دينه الاسلامى يفرض عليه أن يحطم المعابد والمؤسسات الهندية ، وان يحارب كل ما هو هندوكى فكان من الطبيعى أن تثور الهند فىوجهه وان تناهض سياسته وقد استطاع بشجاعته الخاصة وقوة شخصيته أن يحافظ على الزمام ما بقى على قيد الحياة ولكنه لم يكد يموت حتى انفرط عقـــد الامبراطورية وانقسمت الى شيع ودويلات وظلت هكذا حتى وقعت فريسة للانجليز على التفصيل الذى ذكرناه فيما سبق .

وهبطنا الدرجات من جديد وعدنا الى زورقنا لنتابع الرحلة ... ولنرى محرقة ثانية، وهى محرقة الامراء والكبار والاغنياء وهكذا تتمايز مصائر الناس حتى وهم يحرقون فاذا كان الفقراء يحرقون بغير طقوس ويحرقون على خشب من النوع الرخيص فهناك قد أنشىء معبد لتقام فيه الصلوات باستمرار على أرواح الذين حرقوا ... ويحمل الجسد الى المحرقة فى موكب من الكهان ثم يوضع على كومة من الخشب الفاخر من أعواد الصندل وغيره من الاخشاب ذوات الرائحة العطرية ، واذا كان حريق جسد الفقير يكلف ما يساوى نصف جنيه فان حريق الغنى يكلف خمسمائة وقد يكلف ألفا من الجنيهات حسبما يختار أقارب الميت من أنواع الوقود ... وقد كانت هناك موسيقى تعزف ابان حمل جثمان أحد الموتى، فلما سألت الدليل قال لى: «عندما يموت الشيخ العجوز فان ذلك هو النهاية الطبيعية ولذلك فلا مجال للحزن والاسف ، بل ينبغى اظهار السرور والبهجة ولذلك فمن الطقوس أن تعزف الموسيقى وترتل الاناشيد عند حرق المسنين .

معبد الحب

وقال الدليل والآن وقد فرغنا من استعراض شاطىء النهـــر فلنشرع فى زيارة بعض المعابد ولنبدأ بمعبد الحب، ومرة أخرى بدأنا نصعد درجات الشاطىء لنصل الى هذا المبنى القائم هناك لاحد آلهة نيبال والذى هو صورة أخرى من صور « شيفا » والذى أطلق عليه



احدى اللوحات الزيتية التى تزين جدران معبد جـونا مابودا فى بلدة سارنات ـ بجوار بنارس وهى تمثل حلقة من مراحل حياته .

الانجليز أو بالاحرى السياح منهم « معبد الحب » أما لماذا سمى معبد الحب فمرجع ذلك بضع عشرة صور منقوشة على رأس الاعمدة التى تحمل سقفه . وهى تمثل العملية الجنسية فى مختلف الاوضاع والنفوس بدائية بطبيعة الحال ولكنها تصور العملية الجنسية بوضوح ... ولم ألبث أن شعرت بالتقزز والدليل يشرح لى مدلول كل وضع من هذه الاوضاع، ولم يكن مبعث التقزز هو التحدث عن عملية جنسية وانما كل ما كان يحيط بى فى هذه الساعة كان يثير هذا التقزز ... فقد قابلنا بمجرد وصولنا رجل شبه عار الا من خرقة تستر عورته وهذا هو الكاهن ثم أمسك بخشبة طويلة وراح يشير على الصور فى أعلى المكان بينما كان الدليل يشرح الصورة والكاهن يتابعه بالشرح كأن يشير الى عضو تناسل الرجل أو عضو تناسل المرأة لابراز بعض المعانى التى يشرحها الدليل . وهو يفعل ذلك لكى يأخذ بعض النقود يتعيش منها . وفى طريقنا الى المعبد وجدت رجلا نائما على الارض وجسده مطلى بطلاء أصفر، وقال لى الدليل انه واحد من هؤلاء المتبتلين «ساوهو» وان هذا الطلاء الاصفر الذى طلى به جسده هو من رماد أجساد الموتى . ومجموع ذلك كان يؤلف شيئا بشعا جعلنى أقول للدليل هلم بنا وحسبى ما رأيت . وعندما عدنا الى الزورق جاء رجل يبيع لنا صورا فوتوغرافية لهذه الاوضاع الجنسية فرفضت شراءها ، على الرغم من ان كل انسان فى الدنيا يرغب اذا ما حدثته عن هذا الموضوع ان يشاهد هذه الصور ولعلها أغرب شىء يحمله الانسان معه من بنارس ان تكون هذه الصورة منقوشة على جدار معبد ولكن نفسى كانت تنطوى على ثورة لما يمكن ان ينحدر اليه الانسان فى ظل الجهل والخزعبلات ولذلك فقد رفضت شراء الصور .. وراح الدليل يقص على ما يقال فى تعليل تزيين المعبد بهذه الصور، وان هناك ثلاثة تعليلات أما التعليل الاول فهو ان أهل نيبال يعتقدون ان البرق لا يحرق مكانا ينطوى على شر ولذلك فقد وضعوا هذه الرسوم الاثيمة عمدا حتى يأمنوا على المعبد من أن يحرقه البرق . وثمة تفسير ثان وهو ان الداخل الى المعبد يجب أن يتجرد لله فى صلاته فلا يسمح للافكار الشريرة أن تخالج نفسه ، ولذلك

فقد وضعت هذه الرسوم لتكون بمثابة تجربة له وامتحان فاذا استطاع ان لا يشغل بها وان يمضى فى صلاته بقلب نقى فأن صلاته تقبل على الفور • وأما التفسير الثالث وهو الذى استسغته أكثر من غيره هو ان العملية الجنسية لا تثير عند أهل نيبال ما تثيره لدى غيرهم من الشعوب من الخجل، فهى عندهم عملية طبيعية، فاذا شب الصبى أو الفتاة وتزوجوا أخذوا الى المعبد ليتلقوا الدرس الاول فى الثقافة الجنسية •

فى المعـــابد

وانتهت رحلتنا الاولى على شاطىء النهر وبدأنا القسم الثانى من الرحلة وهى زيارة المعابد المختلفة فى داخل البلدة وبدأنا نسير فى طرقات ضيقة مزدحمة بالناس والابقار ودخلنا معابد صغيرة ينام البقر فى أفنيتها ولا يستطيع الانسان ان يفهم من أمرها شيئا، الا أن القذارة والجهل هى الطابع الذى يسود كل شىء فى هذه الامكنة •••

وهكذا لدى كل زاوية ـ ولدى كل بناء يسمع الانسان أمثال هذه الاساطير فهذه صورة «جانش» ابن شيفا على صورة فيل مرسومة على أبواب المعابد كلها •• وهذه صورة « هاتومان » الاله المتقمص صورة القرد ـ بل هذا تمثاله • وقادنى الدليل الى ما يسميه السياح المعبد الذهبى وهو أهم معابد بنارس على الاطلاق ويعتبر بالنسبة لها قدس الاقداس وهو معبد شيفا سيد بنارس وسيد الخليقة كلها ومفتاح الخلاص • وهو المعبد الوحيد فى بنارس المحرم دخوله على غير الهندوكيين ومع ذلك فقد هيئت الوسائل لمشاهدة مايجرى فى داخله من خلال ثقب فى حائط يطل عليه •• ويحيط المعبد حارات ضيقة لا يتجاوز عـــرض الواحدة منها متر ونصف أو مترين على الاكثر فلا يستطيع الانسان أن يرى قبته الا اذا صعد فى بيت مقابل له •• وقد استأجر أحد الكهنة هذا البيت خصيصا ليدخل الزوار اليه ويتقاضى فى سبيل ذلك أجرا•••

والمعبد كله منشأ حديثا أى منذ أقل من مائتى عام ، وهكذا لا يرى الانسان فى هذه المعابد ... وفى هذه الازقة شيئا يستوقف النظر من حيث الشكل أو الموضوع والشىء الوحيد الذى يتكرر فى كل مكان هو البقر .. البقر الجالس فى خمول فى أروقة المعابد وفى أبوابها وقد جعله الشبع كأنه ينبوع من الكسل والخمول وبوله وروثه يغطى كل شىء ، لولا ان جمهور النساك يسرع بشرب هذا البول وجمع الروث للتبرك به لكان الموقف قدأصبح بشعا .



وقادنى الدليل بعد ذلك مرة أخرى وسط الازقة الضيقة الى معبد جديد يسميه السواح معبد القرود لان الانسان لا يكاد يدخل الى ساحته حتى تغشاه القرود من كل مكان .. قرود صغيرة سوداء ذات منظر قبيح وقد اعتاد جمهور المترددين على المعبد أن يقدموا لها فول السودانى والحمص فتتكاثر لالتقاط هذه الحبوب ..

وعندما بدأ الدليل فى حديثه وكيف ان هذا هو معبد « دورجا » احدى زوجات « شيفا » أى بالاحرى صورة أخرى من صور زوجته


استعراض لأغرب حوادث الجريمة التي لعب فيها المجرمون والمجني عليهم ورجال البوليس أدوارا خطيرة ...!
انها حوادث واقعية جمعت بين المآسي المفجعة والفكاهات المضحكة..!
اقرأ
مع المجرمين
بقلم امين فهمي السيد
كتب للجميع
يناير ١٩٥٤
٧

« بارفاتى » وانها تسمى في بعض مناطق الهند وتعبد باسم « كالى » أى الام ولما كانت أسطورتها تقول انها شربت دماء الشياطين الذين قتلتهم لتطهر الارض منهم فقد أصبحت رسوم عبادتها تقوم على تقديم الذبائح لها ··· وقد كانت هذه الـــذبائح حتى وقت قريب بشرية حتى منعتها الحكومة نهائيا فأصبح يكتفى الآن بذبح الماعز كل صباح وذبح الثيران فى المواسم والاعياد ·· ولفت الدليل نظرى الى آثار بركة الدم المرسومة على الارض حيث تنحر الذبائح ·· وكانت هذه القصص وهذه الدماء وهذه القرود ·· كان ذلك فوق احتمالى مرة أخرى فقلت للدليل هلم بنا وعد بى الى الفندق ·· فقال ولكن لا يزال هناك بعض المعابد التى لم ترها بعد فصحت به عد بى فانه يكاد يغمى على ··· حسبى ··· حسبى ما رأيت ··· فقد رأيت ما يكفينى · وقد سبقنى غاندى نفسه زعيم الهند وهو المتدين بكل ذرة من ذرات جسده الى تسجيل مثل هذه الاحاسيس فى كتابه الذى تحدث فيه عن تاريخ حياته وذكرى دخوله الى بنارس حاجا فقد صادفته كل هذه المناظر المؤذية بل انه تحدث عن فزعه من منظر الذبح والقرابين التى تقدم لكالى ، وهاجم بعض طائفة الكهان ·

فالمسألة اذن لا تصدر عن نفس تتعصب لدين من الاديان ·· وانما هى المظاهر والرسوم التى يراها الانسان فى بنارس وينكرها · انما ينبعث من نفس تؤمن بالعلم وبالجمال وبالعقل ، وكل ما يراه الانسان فى بنارس هو أبعد ما يكون عن العقل أو الجمال أو العلم ··· انه بقية من بقايا عهد الجهل والظلام فى الهند ، والتى زادها الانجليز سوادا وحلكة · فديانة الهند أبعد ما تكون عن هذه الرســـــوم والاشكال والخرافات والخزعبلات ··· وهناك فارق كبير جدا كما هو الشأن دائما فى كل الديانات ، بين الحقائق والمبادىء الجوهرية التى تنطوى عليها وبين القشور والرسوم البالية التى يحول لها العوام هذا الدين ·

فكل هذا الذى آذانى فى بنارس من المناظر ومن الافكار والرسوم ليس سوى القشور لطقوس ورسوم من عبارات قديمة بدائية ···

تطورت حتى وصلت الى أعلى درجات الفكر والفلسفة، ولكن الانجليز عملوا جاهدين على ابقاء عوام الهنود غارقين فى هذه الاوهام الساذجة ليكونوا أقدر على حكم الهند والسيطرة عليها .

شريعـة الحج

أنظر الى منسك الحج فى الشريعة الاسلامية ، وهـو من أروع مناسكها التى قصد بها جمع المسلمين القادرين فى صعيد واحد مرة فى كل عام حول الكعبة ليستقر في نفوسهم انهم أمة واحدة تعبد ربا واحدا .

ليس منسك الحج سوى مؤتمر اسلامى شعبى من الطراز الاول ، هو هيئة أمم بالمعنى الصحيح فليس يجتمع فيه سوى الشعوب نفسها لا الامراء والحكام كما هو الشأن فى جامعة الامم الحديثة . وقد جعل الحج فريضة على المسلمين القادرين ، وقد قصد بالقدرة والاستطاعة، القدرة العقلية والبدنية والمالية ، وعندما يجتمع القادرون من المسلمين عقليا وبدنيا وماليا فانهم يؤلفون جيش المسلمين القادر على أن يذود عن العالم الاسلامى فى أى بقعة من بقاعه ... هذا هو الاصل فى شريعة الحج .. ولكن تدهور المسلمين ووقوعهـم تحت براثـن الاستعمار قد مسخ هذا المنسك وحوله الى شىء يثير فى النفس ذات المشاعر التى ثارت فى نفسى عند زيارتى بنارس . ففى موسم الحج لا ترى الا الشيوخ المهدمين الذين أشرف بعضهم على المـوت حتى ليحملونهم فوق الرؤوس ويطوفون بهم حول الكعبة لعجزهم عن الحركة ، بل لا ترى الا أقواما قد ذهبوا الى الحج وكل أملهم أن يموتوا فى الحجاز لكى يدفنوا فى هذه البقعة الطاهرة .. والى جوار هؤلاء عشرات الالوف من الحجاج الفقراء الذين جاءوا سيرا على الاقدام من أنحاء أفريقيا وقد عاشوا طوال الطريق على الكفاف وما يجمعونه من خشاش الارض أو يتصدق به عليهم المحسنون : وفى وسط هـذا الخضم من الفقراء والضعفاء قد تجد بضع مئات أو ألوف من المسلمين الاقوياء الاصحاء يضيعون فى هذا الطوفان من الفقر والضعف والجهل

والذين يحولون منسك الحج الى طقوس جوفاء وصيحات وصرخات عصبية حتى يبلغ الامر ببعضهم وهم يرجمون الحجر الذى يطلق عليه اسم الشيطان وهى ليست سوى عملية رمزية الا أن يخلعوا نعالهم ويضربوا بها هذا الحجر ويبصقون عليه بل ان الامر بلغ بواحد من الحجاج فى بعض السنوات أن أطلق على هذا الحجر رصاصة من مسدسه ليكون ذلك أمضى فى قتل الشيطان ٠

ويحدث مثل ذلك حول الحجر الاسود والذى شرع بدء الطواف حول الكعبة منه والذى قال عنه عمر بن الخطاب « اللهم انى أعلم انك حجر لا يضر ولا ينفع ولولا انى رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك » هذا الحجر نرى الناس تتزاحم عليه حتى لتسيل دماؤهم أحيانا فى التزاحم عليه ، بل ان البدوى ليدفع بزوجته بعنف وسط الزحام حتى يقترب بها من الحجر ثم يضرب رأسها على الحجر بعنف/صارخا بها « حجر ٠٠٠ حجر » حتى اذا سالت دماؤها من الاصطدام بالحجر فهى أسعد السعداء هى وزوجها وبدون ذلك لا تكون قد حجت ٠

وهذا هو الحال دائما٠٠ فارق ضخم بين حقيقة أى دين من الاديان وتعاليمه ٠٠٠ وبين تطبيقات هذا الدين على يد العوام ٠

ولا شك ان الديانة الهندوكية لو قيست بما يراه الانســـان من مظاهرها وتطبيقها فى مدينة بنارس لاعتبرها ديانة وثنية بدائية لا تثير فى النفس الحديثة أى احترام أو أى تقدير ٠ بل لا يلبث الانسان ان يجزم انها كانت السبب المحقق فى تدهور الهند وفى غلبة الانجليز عليها بهذه السهولة ٠

فالدين الهندوكى هو الذى يؤلف المزاج الهندى العام٠٠هو الصبغة التى ينصبغ بها كل شىء فى الهند ٠٠ وكما ذكرت من قبل لن تستطيع أن تفهم كيف أمكن للهند أن تخرج رجلا من أعظم من عرفت البشرية « كغاندى » الا اذا وقفنا على تعاليم الديانة الهندوكية التى اتخذهـــا غاندى أساسا لكفاحه ٠٠

ولما كنت من ناحية أخرى أومن ان ليس هناك ما يساعد على دعم السلام بين بنى الانسان ونشر المحبة والاخوة بين البشر أجمعين الا أن يعرف الجميع كل شيء عن الآخرين .. فانى أرى من الخير أن أنتهز الفرصة لاقدم لقراء هذا الكتاب فكرة عامة عن الديانة الهندوكية والتى يدين بها ثلثمائة وخمسين مليونا من البشر كما قدمت فى كتابى السابق « يقظة العملاق » فكرة عن الديانة البوذية .



الفصل السادس

الهندوكية

ليس هناك ما هو أصعب وأعقد من أن تحاول أن تحيط بالديانة الهندوكية أو أن نقدمها للناس ولقد طالعت عنها منذ وقت مبكر الكثير فلم أفهم شيئا عنها الا انها تقوم على وحدة الوجود وقد كتب عنها المسلمون الذين زاروا الهند ولم يستطيعوا أن يشفوا الغليل وكل ما استطاعوا أن يفهموه منها ان الديانة الهندية تتلخص فى الايمان بتناسخ الارواح أو تقمص الارواح ولقد سافرت الى الهند وكنت شديد الرغبة فى الاحاطة بالديانة الهندية فلم أستطع أن أبدد الغموض الذى يكتنفها وبعد عودتي من الهند طالعت عشرات الكتب فوجدت نفسى لا أزال وسط هذا الخضم وان كانت هناك بعض الجزر قد بدأت تبدو لى باعتبارها نقط ثابتة يمكن الارتكاز عليها فى فهم الديانة الهندية •

وترجع هذه الصعوبة الى أن الديانة الهندية لا تدور حول كتاب معين ولا تبدأ برجل معين كأحد الرسل ، وانما تستند هذه الديانة الى تقاليد قديمة •• قديمة جدا ! ممعنة فى القدم •• وقد تقدم بعض الحكماء من حين لآخر فعملوا على تسجيل هذه التقاليد وتدوينها فى كتب ، على أن الكتب نفسها لم تكن من وضع حكيم واحد وبقلم واحد ، وانما وضعت بواسطة حكماء متعاقبين زاد بعضهم فصولا فى كتب السابقين ، وكلما امتدت العصور بهذه الكتب جاء حكماء جدد فوضعوا كتبا اعتبرت بدورها أصولا جديدة • وهكذا تكاثرت فى الهند الكتب التى اعتبرت كتبا مقدسة ، والتى اعتبرت كتبا موحى بها • وحول هذه الكتب نشأت الهند فى مجموعها محكومة بالتقاليد ••• التقاليد القديمة والممعنة فى القدم ، ولقد بليت هذه التقاليد على مر الزمن ، بل وفقدت روحها وابتعدت عن أصولها ، ومع ذلك فقد ظلت هى المتحكمة والسائدة • وهكذا ظلت الهند تمثل فى ديانتها الادنى والاعلى معا ، فيرى الانسان فيها هذه المظاهر التى يراها

فى بنارس والتى يعيش عليها سواد الهنـــود ويرى فى ذات الوقت منتهى الروعة الروحية والعقلية فى كتبها .

ولذلك ، فأول مايجب أن يفهمه الانسان من الديانة الهندوكية انها لا تستند الى كتاب واحد تنبع منه كل اصولها كما هو الشان فى الاسلام حيث يقوم كل بنائه على القرآن ، او كما هو الشأن فى المسيحية واليهودية او الزرادشتية ، واعنى بها ديانة الفــرس القديمة والتى الحقها عمر بن الخطاب بالاديان الكتابية عندما علم انها تقوم على كتــاب زرادشت . وهى لا تشبه كذلك الديانة الكونفوشيوصية فى الصين حيث تبــدا هذه الديانة بشخصية كونفوشيوص وكتبه . وانما هى عديد من الكتب وتقاليـــد أقوى من ســـلطان الكتب .

واقدم سجل لتقاليد الهند نراها مسجلة فى « قانون مانو » وأقدم منابع للــديانة الهندية وهو مايسمى كتاب « الفيدا » المقدسة وملاحم الهنـــد الشعرية « رمايانا ـ والمهابهراتا » وكتاب الجيتا المقدس .

ولعل هذه القائمة تريك مقدار الخضم الذى يجب عليك ان تطالعه لتقف عــلى طبيعة الديانة الهندوكية وتعاليمها . ولقد طالعت كل ما وقع فى يدى من هـــذا القبيــل فخرجت بالنهاية الى ما خرج به المسلمون الذين درسوا الهند من قبل ، وهى انالديانة تتلخص فىجوهرها بالايمان بوحدة الوجود ـ أى أن هذا الكون انما هـــو وحـــدة : كل مافيه ليس الا جزء من هذا الواحد الذى هو الحى الدائم الذى لا ينتهى ابدا

ويتفرع من هذه العقيدة أنه لا شىء فى هذا الوجود يتلاشى أبدا ، وانما هو يتحـول ويتشكل ويأخذ صورة جديدة ـ وليس هناك مايدلك على وحدة الوجود ، اكثر من ان الاضداد ليست سوى تعبير عن حقيقة واحدة .

أنظر الىالماء والنار ، ان كل انسان يتصور انهما شيئان متغايران مع انهما ليســا سوى حقيقة واحدة ، فالنار تنشأ من احتراق الخشب وليس الخشب ســـوى الزرع والشجر ، وما الشجر الا الماء الساقط من السماء ، فليست النار فى اصـــلها اذن الا الماء .. وما هو الماء ؟ اليس هو الدخان الذى يتصاعد عند احتراق الخشـــب .. فالنار والماء اذن شىء واحد .. وهكذا أدرك الهنود منذ العصر المبكر جدا ، هذا الذى انتهى اليه العلم الحديث من أن المادة لا تفنى وانما تتشكل وتتحول من صـــــورة لاخرى ؛ وقد ظن فى بعض الاوقات فىالنظريات العلمية أن هناك مادة وهنـــاك طاقة يغاير كل منهما الآخر فى طبيعته ، وقد انتهى الامر بأن المادة والطاقة ليسا ســوى شىء واحد . فالمادة قد حولت فى العصر الحديث الى طاقة عن طريق تحطيم الذرة ، وما الذرة فى النهاية الا طاقة مجتمعة ، فالهنود اذن عندما يؤمنون بوحدة الوجود ، يقتربون بشكل عجيب من النظريات العلمية الحديثة . ووحدة الوجــود فلسفة نادى بها بعض الفلاسفة الاغريق ، كما نادى بها بعض فلاسفة العصور الوسطى الاوربيين واعتنقها بعض متصوفى الاسلام ، واشتهر منهم «الحلاج» والذى قتل باعتبـاره زنديقا ولا جدال أن ذلك قد حدث تحت تأثير الفلسفة الهندية ، او بالاحرى الديانة الهندية . والعقيدة الهندية على ذلك تختلف عن سائر العقائد الاخرى من حيث انهــا لا تتصور لله خالق هذا الكون وجودا منفصلا عن هـــذا الكون ، فالخالق مندمج فى

مخلوقاته ، هما شيء واحد ـ وهذا الكون كله هو الله ولا شيء غير الله وباستطاعة اى انسان بل باستطاعة اى كائن أن يرى الله فى نفسه متى صفت وتطهرت حواسه ، وسمت روحه من خلال التصوف والتجرد والمعرفة ، وهذا هو لب الديانة وجوهرها وتفرع عن هذا الجوهر كما ذكرت من قبل فكرة التناسخ والتقمص .

فالانسان اذا مات ، انتقلت روحه الى وعاء جديد فان كان خيرا فى حياته عاش خيرا فى حياته الجديدة وانتقت روحه وعاء جديدا نظيفا ، واما اذا كان شريرا فان روحه تنتقل الى وعاء شرير وقد يكون جسد حية رقطاء او ضبع من الضباع . ومن هذه الفكرة انبثقت كل هذه التعاليم والدعوات التى تحث الهنود على أن لا يقتلوا أو يذبحوا الحيوان ، فليست هذه الحيوانات شيئا صغيرا ، ولا هى شيء معد للذبح فقد تكون جدا للانسان او احد اقربائه أو أحد الصالحين الذى يعذب لسبب من الاسباب .

وهذا هو أقوى ما سيطر على الهندوكيين من عقائد وأفكار لا فرق فيهم بين هندى وآخر مهماكان مذهبه ومهما كانت ملته ، حتى المسلمين من الهنود لم يستطيعوا التحرر من هذه العقيدة .. عقيدة التناسخ والتقمص .. ولذلك وجدت فيهم الفرق التى تعترف بالتقمص كالفرقة القاديانية والاسماعيلية ، بل انهم ليفسرون آيات القرآن لتنطبق على عقيدتهم فيجادلونك بقولهم : أو لم يقل الله فى القرآن وهو يتحدث عن الانسان « فى اى صورة ماشاء ركبك » .. اى ان الله يركب الانسان فى اى صورة من الصور . ولقد ثار بوذا على كل تعاليم الديانة الهندوكية القديمة ولكنه لم يستطع أن ينكر عقيدة التناسخ ، بل ان دعوته الصارخة فى عدم الايذاء فضلا عن قتل الكائنات الحية فى اى صورة من الصور هى اثر من آثار العقيدة المتاصلة فى الديانة الهندية .. عقيدة التقمص والتناسخ ..

وفيما عدا هاتين الفكرتين ، او بالاحرى الفكرة الواحدة .. فيما عدا هذه العقيدة فليس للديانة الهندوكية تعاليم خاصة او رسوم خاصة .. ليس هناك سبيل لمن ليس هندوكيا لكى يصبح هندوكيا .. ليس هناك كالاسلام شهادتين اذا نطقت بها اصبحت مسلما ، وكالمسيحية اذا رسمت الصليب على صدرك ونطقت ببعض الفاظ وعمدك القسيس بالماء اصبحت مسيحيا .. لا .. ليس فى الهندوكية شيء من ذلك ، فهى دين غير معد للتصدير ولا هى دين للتبشير . ان الديانة الهندوكية هى الحياة الهندية نفسها ، هى هذه التقاليد التى يحيا عليها الهنود . ومن هنا كان هذا الطابع الفريد للديانة الهندوكية وهو عدم محاربتها لاى دين من الاديان او كراهيتها لفكرة من الافكار لانها بطبيعتها تتسع لكل شيء ، اذا تحدث المسلم عن محمد كنبى مرسل جرت على يديه المعجزات واوحى اليه من الله بالقرآن فليس فى ذلك مايعترض عليه الهندى ، لان الله يوحى لمن يشاء من عباده ...

بل ان فى كل نفس يوجد الله ، وباستطاعة كل انسان ان يرى الله فى نفسه واذا قال المسيحى عن عيسى أنه هو الله بذاته وقد تجسد فى صورة عيسى بن مريم ، فلا شيء فى ذلك يعارضه الهندى ، لان الله ـ كما قلنا ـ قد تجلى فىعديد منالصور والاشكال واتصل بعباده . فهى ديانة تتسع لكل شيء ولا تضيق عن شيء .. ولذلك فقد استطاعت ان تهضم كل ما وفد على الهند من أديان وأن تقن بهـا نفسها

وفلسفتها ، وان تظل هى السائدة المسيطرة لانهـا هى الحيـاة الهندية ولا شيء غير هذه الحياة .. يحياها المسلم او المسيحى او الهندوكى او البوذى على السواء .

كتب الفيدا المقدسة

واقدم كتب الهند المقدسة على الاطلاق والتى يرجع تاريخها الى ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، هى الكتب المسماة « فيدا » وهى ثلاث كتب اهمها مايسمى «ريج فيـدا » وكلمة « فيـدا » معناها فى اللغة السينسكريتية : « المعرفة » ويفهم من ذلك ان الاصل فى هذه الكتب انها تضم كل المعارف التى كانت سائدة فى وقت كتابتها ، فهى تحوى عديدا من الاشياء ، أناشيد تعبدية وطقوسا لتقديم القرابين وسـحر وتعاويذ واشعار رائعة تصف الطبيعة وظواهرها ولن تجد فى هذه الكتب اوثانا او عبـادة اصنام ، بل لن تجد فيها هياكل لعبادة الالهة ، بل انك لترى فيها التحذير من اقامة النصب والرموز للالهة . هذه الكتب على مايقول طاغور شاعر الهنـد ونهـرو زعيمها هى آية حيوية هذه القبائل الآرية التى تدفقت على شمال الهند والتى كانت تعيش فى هذا القسم من جنوب ايران وشمال الهند .

انها كتب شعب يحب الحياة ويقبل عليها بكل حواسه ومشاعره ، يقترب منهـا بكل مافيه من عزم وقوة .. انها كتب شعب بدأ هذه الرحلة الانسانية الكبرى لارتيـاد المجهول مبتدئا من نقطة الابتداء وهى تأليه العناصر كلها : الارض والسـماء والشمس والقمر والماء والنار والسهل والجبل والرعد والبرق ، فكل هـذه عناصر الهيـة وقوى خفية ، ولكنها جميعا من صنع اله خالق لا يعرف من امره شيء الا انه العلة الاولى .

ولذلك ففى كتب الفيدا سنعثر على هذه البذرة الاولى التى تتحول بالتدريج الى شجرة باسقة ، هى شجرة العقيدة والديانة الهندوكية .

وسـنرى فى كتاب « ريج » مبدأ هذا التعبير الخالد « الحقيقة واحدة ، ولو ان العقلاء يسمونها باسماء مختلفة » وسيصادفنا فى « الريج » فيدا نشيد الخليقة والذى يرسم لنا كيفية الخلق ويضع الاساس لفكرة وحدة الوجود .

الملاحم الهنـدية

والى جوار كتب الفيدا المقدسة الثلاث تقوم ملحمتا الهند المقدسة وأعنى بهما كتابى « الرمايانا والمهابهراتا » وهى ملاحم اشبه بالياذة هوميروس والاودسة تتحدث عن هذه الحروب التى استمرت فى الهند خلال الف سنة قبل المسيح والتى انقسمت فيهـا الاسرات المالكة فى الهند الى حزبين ، وفى هاتين الملحمتين اللتين اتيح لى ان اطالعهما يرى الانسان روحا فياضة من الشعر وخيالا رائعا من القصص ، ويرى صورة حيـاة الهند فى هذه الازمنة السحيقة يرى التقاليد والعادات التى هى اساس حيـاة الهنـد فى كل عصورها ... ويرى الاشارة المستمرة لكلمة « دهارما » والتى تستعمل عنـد الهنود كما تستعمل كلمة الدين عندنا ، فكل شيء حسن متى كان يتم طبق «الدهارما» وكل شيء قبيح وشر فى كل مايخالف قواعد « الدهارما » وقد إختلف العلماء فى تعريف

ماهو المقصود بالضبط من كلمة «دهارما» والارجح أن هذا الكون يسير وفق قواعد معينة ، وفق ناموس خالد ، ومهمة بني الإنسان هو اكتشاف هذا القانون والسير طبقا لنصوصه للحصول على السعادة والنجاة (١) .

الجيتا

وتبلغ ملحمة المهابهراتا ذروتها القدسية في مناقشة دارت بين « ارجونا » ، بطل احد الحزبين المتحاربين ، وبين «كرشنا» ، وهو سيد المخلوقات ، والذى جاء لنصرة ارجونا فى حربه وقتاله .

ان ارجونا بطل عظيم وقد استطاع أن يفوز على كل أعدائه وان يصرعهم واحدا بعد الآخر ، حتى اصبح اسمه يرعب جميع المقاتلين ولا عجب فى ذلك فقد كان «كريشنا» سيد المخلوقات هو ناصره ومعينه .

وفى احدى المعارك وكان ارجونا يقابل في صفوف أعدائه الكثيرين من اقاربه وافراد اسرته واصدقائه واحبابه ، فجزعت نفسه من أن يقتل هذا العدد الغفير وأن يكون مصرع أقاربه واصدقائه على يديه ، فتردد وتهيب عن خوض المعركة ، بل وبدا يتشكك فى جدوى القتال ومشروعيته ، واستطرد من ذلك الى محاولة استكناه أسرار هذا الكون ، فجرت بينه وبين كريشنا مناقشة حول هذه المواضيع وهذا الجزء من ملحمة المهابهراتا هو الذي انتزع على حدة واصبح يؤلف كتاب الجيتا اشهر كتب الهند المقدسة فى العصر الحديث والذى اتخذه غاندى نفسه أساسا لتعاليمه وحياته .. وعندما كنت فى دلهى وسألت احد الهنود عن كتبهم المقدسة لم اجده يعرف شيئا عن الفيدا عندما ذكرتها له ، ولكنه كان يعرف على الفور كتاب الجيتا ، وذكر لى كيف أنهم يرجعون اليه فى كتبهم وخطبهم ودعاياتهم لكثرة مايجدون فيه من المعانى والآراء والافكار مايمكن ان يصور حياة الهند الحديثة ويحل مشكلاتها .

ولست أجد شيئا اروع من ان اثبت هنا بعض هذه النصوص التى تضمنها كتاب الجيتا ، ليحكم كل قارىء بنفسه على ماهية الديانة الهندية .

***

قال ارجنا لكرشنا وهو واقف بين الصفين ، وينظر الى الذين جاءوا لمحاربته :

« سيدى ارى امامى اقاربي الاقرباء واصدقائي القدماء ففيهم الاخ وابن الاخ وابن الخال وابن الخال والعم وابن العم ، فيهم الابناء والاحفاد وفيهم الشيوخ الذين نشأت على تبجيلهم ، اراهم امامى وقلبى يرتعد ويدى ترتعش واشعر بحلقومى كأنه جف . هل يليق بى أن احارب هؤلاء الاحباب الاعزاء والاسلاف الاجلاء ؟ كلا لانى ان حاربتهم احرم

١ – ولعل أقدم محاولة لاستكناه هذا الناموس يراها الانسان مسطرة فيما يسمى قانون مانو والذى تضمن مجموعة من القواعد التى يلتزمها حتى الا ن المتزمتون من الهندوكيين باعتبارها قواعد «الدهارما»

من راحة البال أبدا . ان حياة الذل والفقر خير من النصر الذى أناله بقتلهم . أجل لا يحل لى قتلهم وانهم لو قتلونى فانى لا ارضى برفع يدى عليهم . لا ريب انهم ظالمون ومع ذلك لا يطاوعنى قلبى فى قتالهم . ثم انى ان حاربتهم فنيت أسرتنا العريقة فى المجد بأسرها وبفنائها تفنى سائر عوائدها وتقاليدها واذا ذهبت العوائد والتقاليد فما الذى يمنع البقية الباقية من الرجال ولا سيما النساء من الضلال والغواية فينتشر الشر وتعم الفتنة فى النساء ، وبفساد النساء تخلط الانساب وترتفع فروق المراتب البشرية ، ان هذا لشر مستطير ، وهو ما ينتج من هذه الحروب وسفك الدماء . فالذين يتحاربون ويسببون هذا الفساد لا بد من أن يجازوا بالجحيم وليس هؤلاء وحدهم الذين عليهم أن يقدموا لارواحهم ما يجلب لها الراحة والسعادة . هكذا تفنى الرسوم والعوائد وهكذا يذهب الدين « دهارما » فيصير نسيا منسيا ونحن ما زلنا نسمع أن الذين كانت حالتهم هذه يدخلون الجحيم الابدى ولذلك فمباشرتنا الحرب اثم ليس فوقه اثم .

فاجابه كريشنا قائلا :

« ان خورك يا أرجنا فى هذه الساعة الرهيبة لعار ليس فوقه عار وانت لن تجد بعده راحة البال طول حياتك وسيكون ذلك وصمة سوداء فوق جبينك لا يمحوها الدهر ابدا . أيها البطل الشجاع ما هذا الجبن الذى لا يليق برجل مثلك وطد نفسك على الحرب وسر الى النصر الذى ينتظرك »

ارجنـــا :

« كيف لى أن احاربهم وأنا أرى فيهم أساتذتى وأعمامى واخوالى الذين يجب على احترامهم ؟ أليس حياة لتسول خير من الملك الذى أناله بقتلهم ؟

تبسم كرشنا من قول ارجنا وقال له :

« تتكلم بكلام العقلاء ثم أراك تهتم بما لا يهتم به العقلاء ، الا تعلم ان العاقل فى مثل هذا الموقف لا يبالى بالحياة ومصيرها هل تظن أنا وانت وجميع هؤلاء الملوك وسائر الناس وجدوا بعد أن لم يكونوا شيئا ؟ هذا ما لا يقوله عاقل . لا يمكن وجود شىء من لا شىء . كل من هو موجود الآن وجد من قبل وسيبقى موجودا دائما وكما ترى الحياة تطرأ عليها الطفولة والشباب والشيخوخة كذلك تنتقل الروح من جسد الى جسد آخر وهذا التنقل هو الذى تسميه بالموت ولكن العقلاء لا يزعجهم اسم الموت .

يا أرجنا ان الالم واللذة مناطهما بالمشاعر التى مآلها الى الفناء فلا ينبغى لك أن تقيم لها وزنا . والذى ارتفع فوق الالم واللذة فهو الذى ينال السعادة الدائمة والنجاة الابدية .

لا يمكن أن ينعدم ما هو موجود ولا يمكن وجود شىء من العدم . فيك بهذه المعرفة يا أرجنا .. يفنى الجسم ولا فناء للروح ليس لها بداية ولا نهاية فعليك يا أشجع الشجعان أن تبعد الافكار الباطلة عن نفسك وتاهب للقتال لان واجبك هذه الساعة هو القتال ، عليك أن تعلم أن الروح لا يقتل ويقتل انه ليس بأمر حادث بل هو قديم

---

١ ـ هذا هو نص الترجمة الرسمى كما نشر فى مجلة ثقافة الهند عدد يونيو سنة ١٩٥٣

ازلى •• أبدى لا يتغير ولا يتبدل ولا يموت بموت الجسد فالذى يرى الروح خالدا فهو يعلم كذلك انه لا يقتل احدا وكما يبدل الانسان لباسه كذلك الروح تغير قشرتها فتنتقل من جسد الى جسد •

اكرر لك يا ارجنا ان الروح لا تموت ولا تزول انها خالدة ، لا النار تحرقها ولا الماء يفسدها ولا السلاح يقطعها هى دائما على حالة واحدة لا تقبل التغيير والتبديل •

ثم قال كريشنا

لقد أضلت كلمات فيدا عقلك فصرت لا تفهم قيمة الفرض وما يتبعه من الواجبات والذين يتمسكون بألفاظ « فيدا » وحدها ويرونها كل شىء فقد ركبوا شططا انهم انما يجرون وراء أهوائهم النفسية يمنون أنفسهم بالجنة لانهم حريصون على لذات الحياة فيقومون بطقوس يرونها تضمن لهم الجنة ، ولذلك تبلبلت عقولهم وتشعبت سبلهم ، وضلت أعمالهم فهم فى حيرة وارتباك يجرون وراء شهواتهم ولا يستطيعون حصر أفكارهم فى نقطة واحدة •

اما انت فكن فوق القشور « الفيدية » لا تقلقك افكار الراحة أو التعب ، النجاح او الخيبة بل كن مطمئنا منشرحا فى روحك والعاقل الذى وصل الى الحقيقـــة ليست الكتب الفيدية له الا كبئر فى مكان ذى انها فعليك ان تقوم بواجبك لانه واجب واجمع عقلك فى هذه النقطة وحدها •

سأل أرجنا وكيف يستطيع المرء أن يجمع عقله ؟ فأجابه كرشنا :

« ان الذى تغلب على أهوائه النفسية وملك حواسه كلها فهو لا يخـاف شيئا ولا يطمع فى شىء ولا يحب احدا ولا يكره احدا فهو الذى نال العقل المستقيم •• ان الحواس تتبع ميولها فعلى المرء أن يجذب الى قبضته حواسه عن مشتهياتها كما تجذب السلحفاة أطرافها الى بطنها ••• اجل ان النفس جامحة الا انه يجب السعى لوقفها وتحويلها الى الله ، فالذى لا علاقة له بشىء ، ولا يخاف شيئا ولا يطمع فى شىء وحواسه تحت أمره فهو المطمئن حقا وان كان يقوم بأعمال الدنيا كغيره من الناس انما العمـــل الحقيقى هو التحرر من سلطان النفس فمن تحرر منها فقد فاز بطمأنينة الحقيقة واهتدى الى الله وفاز بالنجاة •

فقال أرجنا : اذا كانت النجاة لا سبيل لها الا بالتغلب على الحواس وقهر النفس فلماذا نهتم بأمور الناس ؟

فأجابه كرشنا قائلا :

« ان الذى يتجرد من الدنيا ، يترك واجبه لا يصل الى الكمال ابدا ، والاعمال التى تأسر الانسان هى التى يقوم بها لارضاء نفسه لا لاجل المصلحة العامة ، فعلى المرء أن يجعل سائر أعماله خالية منزهة من أهواء النفس ، وما عاشت هذه الدنيا الا بمثـــل هذه الاعمال النبيلة النزيهة ، والذى يطبخ الطعام ليأكله وحده لآثم فاذا أكل فلا يأكل الا اثمه ، والذى لا يهتم بمصلحة غيره فهو سارق ، والذى يحيا لارضاء حواسه فحياته كلها آثمة ، ليس لاحد أن يسخر غيره لاشباع ميوله ، وانما الطريق الى الله أن تكون الاعمال كلها خالصة له ولنفع خلقه •• ترغب الحواس فى بعض الاشياء وتنفر من بعضها فلا ينبغى للمرء أن يطيع حواسه فى رغبتها ونفرتها ، إذ الرغبة والنفرة هما



« جان دارك » الهندية ، لاكشيمى باى والتى يطلقون عليها ملكة جهانس

العدوان اللدودان للانسان ، على المرء ان يعمل دائما ما هو واجب عليه حتى ولو لقي حتفه في سبيل واجبه ٠

« اعلم ان اشد اعداء الانسان اثنان: الشهوة والغضب وهما اللذان يدفعانه الى الذنوب ، وكما يغطي الدخان النار ، ويكدر صفاء المراية ، كذلك الشهوة والغضب يغطيان عقل الانسان ، فعلى الانسان أن يقتل هذين العدوين ٠٠٠ الحواس لطيفة والطف منها النفس ، والطف من النفس العقل ، والطف من العقل الروح ٠٠ فالروح هي كل شيء ، فعليك أن تفهم هذا وتتغلب على حواسك وتقهر شهواتك وتتقدم الى الروح ٠٠ هذا هو الدين الحق ٠٠ الدين القويم الذي نسيه الناس فاخذوا يتخبطون في بيداء الروايات والتقاليد الباردة ٠ ثم قال :

« وعند ما يضل الناس الصراط المستقيم ، وتتغلب لاهواء فينسون فريضتهم الانسانية ويهجرون الدين القويم يرسل الله أصفياءه أصحاب الارواح الطاهرة لهداية الناس ٠

والذين تحرروا من أهواء النفس والغضب والخوف واتجهوا الى الله وابتغوا رضوانه فانهم ينالون لمعرفة الحقة ويفنون في الخالق ٠ ليست النجاة منوطة بعقائد وتقاليد قديمة أو حديثة ، بل انما ينالها الانسان اذا طهر نفسه وتحرر من الرغبة والرهبة ووقف حياته على مرضاة الله ٠ ولا يخدعنك اختلاف الشرائع وتعدد الطقوس فان الله يقول « أي طريق يسلكه عبدي الى فانه يجدني فيه » ٠ وكما يصل الواقفون على الدائرة المدورة الى وسطها من طرق شتى كذلك يصل السالكون الى الله وان اختلفت مسالكهم وتعددت مذاهبهم ، فعلى العاقل أن لا يزعج بال قليل العقول بتقبيح مذاهبهم ان كانوا مسددين في أعمالهم محسنين في سلوكهم بل يتركهم على خيرهم ولا يشككهم ٠ »

اما الطبقات الاربعة وهي « برهمن » أهل العلم والارشاد و « كشترى » أهل الحرب والحكم و « يش » أهل التجارة والحرفة و « وشودر » أهل الخدمة والمهن الدنيا فقال كرشنا عنها :

ليس لانسان أن يقرر هذه الفروق بين الناس ، ولا هي خلقية طبيعية وانما خلق الناس على طبائع اربعة ، كل طبع يميل الى صنف من العمل ويصلح له ٠ واختلاف الطبائع هذا طبيعي جبلي ، فعلى كل واحد من الناس أن يشتغل بالعمل الذي يميل اليه ويصلح له بطبعه فمن قام بعمله وهو يبغي رضوان ربه فهو يصل الى الكمال ويفوز بالنجاة ٠ »

وقال :

ان الذي لا يقصد بعمله نفعه الشخصي فهو العارف الذي غلب على نفسه ونبذ الانانية والذي لا يحسد ويؤثر مصلحة الآخرين على نفسه ويخص عمله كله لله فقد تحرر من قيود الدنيا ، على الانسان أن يرى في كل شيء صنعة الله وقدرته ويؤمن بكل قلبه أن الله هو الحق الابدي الذي لا يزول وكل ما سواه فهو باطل وسائر الى الزوال والفناء فمن امن بكل هذا واعتقد ان كل شيء راجع اليه تعالى فهو العابد حقا ٠ يقوم الناس بعبادات شتى ذكرت في فيدا ولكن راس العبادة هو العرفان الذي لا ينخدع بعده العابد بالظاهر وعماد ذلك العرفان ان يرى الانسان المجتمع البشري في داخله ويرى في الكل في الله ويرى الله في كل شيء ٠

لا شيء يطهر الانسان اكثر من هذا العرفان • والعارف • يدرك بالتدريج ان الله معه وفيه وعلى ذلك أكبر ما يحتاج اليه الانسان في سلوكه الى الكمال هو الايمان وقهر النفس • »

وسأل ارجنا مرة أخرى ما هو خير للانسان : التجرد من الدنيا ومراقبة النفس او تطهير النفس مع التعلق بامور الدنيا »

فاجاب كرشنا قائلا

ان الذين يفرقون بين الطريقتين اطفال لا يعقلون • اما العالم العاقل فلا يفرق بينهما والانسان يصل الى الكمال اي طريق سلكه ان قام بشرط حق القيام والذى يرى الطريقتين موصلة الى المقصود فهو المصيب •

الناسك الحق هو الذى لا يبغض احدا ولا يشتهي شيئا ولا يرى غير الله شيئا انه يجري وراء واجبه دائما طهر قلبه وتغلب على حواسه فنفسه في قبضة يده لاتنازعه ولا تحيد به عن الصواب وهو يرى الارواح كروحه ولا يفرق بينهما ولا يقصد بعمله الا وجهه تعالى وحده •

فالذى يقوم بواجبه كما قلت يبزغ نور العرفان في داخله كما تبزغ الشمس في السماء فيرى ربه بعين قلبه ويشعر بالنجاة بعد أن تذهب ذنوبه وتحل محلها الحسنات •

والعالم الحق هو الذى يرى العالم البرهمى المتواضع والبقرة والفيل والكلب والمنبوذين بعين واحدة لان خالقهم واحد ، فمن استقام عقله فى هذه التسوية بين الخلق فقد فاز بكل شيء فى الدنيا وذلك لان الربوبية تشمل جميع الخلق فمن ادرك الربوبية فقد أدرك الله •

واللذائذ الحسية عاقبتها الالم والحزن فلا يجري العاقل وراءها والذى ملك حواسه ونفسه في هذه الحياة فهو الناسك حقا وهو الذى فاز بنعمة راحة البال انه يجد الطمانينة والراحة والنور في روحه ويصل الى النجاة بفنائه في الخالق ولا يسعد بهذا الا من نسي نفسه وقهر هواه ولا يزال في عمل مستمر لمصلحة الناس عامة وليس الناسك من يتشبث بظواهر النسك وحدها فلا يمس النار ويفعل هذا ولا يفعل ذلك كالمتطفلين انما النسك كيفية قلبية لا هيئة خارجية فالذى لا يبالي بالعواقب في اداء واجبه فهو الناسك الصادق والذى يتخلى عن واجباته في الدنيا فهو ليس من النسك في شيء » •

ليس للانسان صديق الا هو نفسه ، وليس له عدو الا هو نفسه ومن تغلب على نفسه فهو صديق نفسه ومن قهرته نفسه فهو عدو نفسه فمن غلب نفسه ولا يبالي بالحر والبرد بالراحة والالم بالسراء والضراء فهو صاحب الروح الاكبر ومن يرى الصديق والعدو ، القريب والبعيد ، السعيد والشقى بعين واحدة فهو المهتدى •

ليست النجاة للذين افتتنوا بالدنيا ولا اللذين هجروا الدنيا فارين من واجباتهم بل هي للذين يلزمون الطريقة الوسطى فلا يفرطون ولا يفرطون في ماكلهم ومشربهم

وملبسهم انهم وسط فى كل شيء فيستريحون كما ينبغى وينصبون كما ينبغى • والناسك الحق هو الذى يرى وجوده فى وجود الآخرين ووجودهم فى وجوده هو الذى لا يفرق بينه وبينهم بل يدرك الله فى الجميع ويدرك الجميع فى الله فمن كان هكذا فعلاقته بالله وثيقة لا انقطاع لها فالذى يحمد الله فى خلقه ونسى نفسه فهو مع الله اينما كان وحيثما كان ومن يرى سعادة الآخرين وشقائهم سعادته وشقاءه فهو حبيب لله حقا » •

وسال ارجنا اليس قهر النفس الامارة كما تقول لمن اصعب الامور فاجابه سرى كرشنا قائلا :

« اجل ياعزيزى انه لمن اصعب الامور لايكون قهر النفس الا بعد النية والتمرين والرغبة عن لذائذ الدنيا والذى حرم قوة الارادة والعزيمة فلايتمكن من قهر نفسه ولا ينال النسك والشرائع الظاهرية والطقوس الرسمية لا تنفعه شيئا • ان مجرد الرغبة فى هذا السلوك يغنى المرء عن فيدا وعن شرائع فيدا ، هذه الرغبة تجعله فوق كل هذا ومن سعى مع هذه الرغبة سعيا صادقا وان كان قليلا ينتفع به وان اضطرب قلبه ولم ينجح فى النسك كل النجاح ، لان طريق التقدم الروحى ينفتح امامه يسلكه اذا وطد عزمه • »

ثم شرح كرشنا معرفة الله قائلا :

« تجلت قدرة الله بطريقتين جلية وخفية • أوجد بهما سائر الخلق والناس اما القدرة الجلية فهى تمثلت فى التراب والماء والنار والهواء والاثير والنفس والعقل والانانية وأما القدرة الخفية الكامنة فهى الروح الذى به قيام كل شيء وحياته • ان الله هو الخالق وهو المفنى والعالم كله مع الله كمثل الحبات فى السبحة فهو الذى جعل الرطوبة فى الماء والنور فى الشمس والقمر وهو اسم الذات فى فيدا ، والصوت فى الفضاء والرجولية فى الناس والرائحة الطيبة فى التراب واللمعان فى النار والرقة فى النساك وهو أصل كل شيء وهو البذرة الحقيقية للكون وهو العقل فى العقلاء والعظمة والقوة فى الاقوياء والذين تحرروا من الاهواء وهو الرغبة الطاهرة فى جميع الاحياء ان السكون والحركة ، والكسل وغير ذلك من الاحوال كلها من الله ولكنه منزه عنها • ابتلى الناس بالسكون والحركة والكسل فهم فى غفلة عن ربهم وهو تعالى لا يناله الفناء وليس كمثله شيء •

« ومن الناس من يتبع هواه ويعبد آلهة غير الله وقد جعل الله طمانينة المرء فى من يعبده ، وثمرات هذه العبادة الباطلة كذلك من الله ولكن ثمرات هؤلاء الجهال الاغبياء زائلة • ان من يعبد الالهه يصل الى الالهة ومن يعبد الله يصل الى الله • يعبد الجهال الالهة لان مداركهم قصرت عن معرفة الله ولذلك يشكلونه بأشكال الهتهم وحقيقة هذه الالهة كذلك ترجع الى الله غير ان لا شكل له وهو الازلى الابدى المنزه عن الخلق وما اتصف به الخلق ، وهو فوق كل شيء لا يفهم الجهال خالقهم الذى لا يخفى عليه شيء وهو يعلم ماكان وما يكون • والذى يتجرد من نفسه ويتجنب المعاصى ويعمل بالحسنى ثم يعبد الله وحده فهو الذى يصل الى الحقيقة ويفوز بالنجاة •

« والعارف الذي يعبد الله يرى الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة واينما يتولى يرى وجه الله انه تعالى في كل شيء وهو الحي الذي لا يموت وهو الرب الذي به يقوم كل شيء ٠

« يا ارجنا ليكن اكلك وشربك واخذك وعطاؤك وحياتك ومماتك لله وحده لا لنفسك هذا هو السبيل الحق وبه تصل الى خالقك الذي لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار هو الاول والآخر والظاهر والباطن هو الذي خلق الخلق فعليك ان تكون له وحده وتعمل له وحده »

وكلام كرشنا طويل وهو يرمي الى غرض واحد وذلك ان الانسان يجب ان يقوم يقوم بواجبه غير مبال بالعواقب وبما يقوله الناس ، وقد شرح كرشنا لصديقه ارجنا ان الروح لايموت وان القتال في سبيل الحق واجب عليك فلا تتردد فيه لانك مهما قاتلت لا تقتل الروح الذي لا يزال حيا حتى بعد خروجه من الاجساد ٠

هذا هو بعض ماتضمنه كتاب الجيتا ٠٠ ولست احسب ان في الهند كلها شيء يخرج عن هذه الحدود المرسومة في هذه الصفحات ٠٠ ان الديانة البوذية نفسها لا تخرج عن هذه الحدود ولذلك فلا بد ان يكون احدهما قد اقتبس من الآخر ٠ بل متصوفة المسلمين والمسيحيين قد استمدوا آراءهم وعقائدهم من هذه الصفحات اما بطريق مباشر او بطريق غير مباشر ٠

الاوبني شيد

ووجدت في الهند بعد ذلك كتب اخرى متاخرة وهي ما يطلق عليها كتب « الاوبني شيد » وهي لا تخرج عن ان تكون تعمق في هذه الموضوعات التي اجملها « الجيتا » واستغراق في الفلسفة ، فيفتتح احدها بالسؤال عن العلة الاولى ٠ هل هناك لهذا الكون علة اولى ؟ ويرد على السؤال بأن هذا البحث يذهب بنا الى سلسلة من العلل لا نهاية لها ، فهل نرفض نظرية العلة الاولى ونقول ان الكون خلق من لا شيء ؟ خلق من العدم ؟ هذا لايمكن ان يكون ، لانه لايمكن خلق شيء من لا شيء ، المعدوم لايخلق الموجود ، فلا بد من ان نقول بالعلة الاولى للكون ، وهي الحق اي الوجود العاقل ٠ فقضت مشيئة الحق ان يتوسع ، ويمتد ويكثر ، فكان النور ، والماء ، وكل شيء حي في الكون ٠ والاشياء كلها غذاء بعضها لبعض ، فهي لا تزال تظهر وتكثر ، وانه هو الحق الذي لا يزال يكثر ويمتد ويتسع في العالم ٠٠ وعلى هذه الوتيرة من اثبات وحدة الوجود والتي صورها الشاعر الهندي احسن تصـــوير في قوله « ان الديك والغراب وسائر الطير ، اقاربي ، والبحار الزاخرة ، والجبال الشاهقة ، اسرتي ، كل ما اراه بعيني ، وكل ما اتصوره بمخيلتي ، هو لحمي ودمي ، هو انا لا غيري ، اوه ما اوسع سروري واعظم غبطتي » ٠

على هذه الوتيرة تمضي كتب الاوبني شيد ٠ والتي تتضمن كل الفلسفة الاخلاقية التي تطبع الهند بطابعها والتي تعتبر « اليوجا » احد مذاهبها ومدارسها ٠

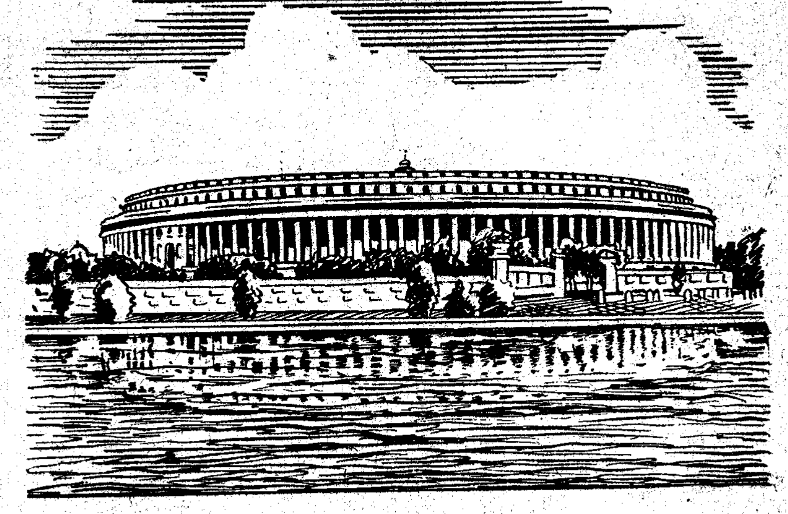
واحسبني الآن قد جعلت القاريء يتذوق عينه من الديانة الهندوكية فمن شاء التوسع للاستزادة من العلم والثقافة ، فالسبيل امامه ميسر ٠

الفصل السابع

فى دلهى

وأخيرا جاءت الساعة التى ركبت فيها القطار من بنارس الى نيو دلهى ، وعلى الرغم من أن الهند قارة ضخمة، وتتألف من ولايات مختلفة يزيد حجم بعضها عن حجم نجلترا وفرنسا مجتمعتين، وبالرغم من أن دلهى لا تقارن بكلكتا أو بومباى أو مدراس نفسها من حيث الضخامة ومع ذلك فسيبقى لدى الانسان الشعور الغامض ، بأن عاصمة البلاد هى البلاد نفسها ، وأن من لم يزر عاصمة بلد من البلاد ، فلا يمكن أن يأخذ صورة حقيقية عن هذا البلد ، ولذلك فقد أقبلت على زيارة نيو دلهى وكأنى مقبل على زيارة الهند الحقيقية ، وكأن هذا الذى رأيته من الهند حتى الآن ليس شيئا بجور ماسوف أراه فى دلهى ٠٠ وقد كان ، وعززت دلهى هذه النظرية بأقوى ما تعززه عاصمة أخرى ٠ فدلهى هى الهند القديمة بكل عظمتها وجلالها ، هند الحكم المغولى الذى يعتبر ذروة ما وصلت اليه الحضارة فى آسيا ، ودلهى هى هند الحاضر النشوى بخمر انتصارها وتحررها من ربقة الاستعمار بعد قرنين من الزمان، ودلهى هى هند المستقبل بكل ما تعده لهذا المستقبل من خطط وبرامج تجعل الهند احدى دول العالم العظمى الثلاث ، وأعنى بها الولايات المتحدة وروسيا والهند ٠

لقد عاشت دلهى حتى بضع سنوات قليلة ، مدينة حالمة، أو بالاحرى مدينة كما يراها الانسان فى الحلم ٠ أن أقدار الهند لم تكن تبرم فى هذا المكان ، وانما كانت تبرم هناك فى لندن ٠ لقد كان يقيم فى



دار البرلمان الهندى

دار الحكم نائب للملك ··· وياله من قصر هذا الذى يقيم فيه وياله من ساحة تلك التى تواجه القصر ، ان قصر بكنجهام فى انجلترا ليس سوى كوخ متواضع بجوار هذه العظمة وهذا والبذخ وهذه الضخامة فى البناء ، ومع ذلك فان نائب الملك هذا لم يكن سوى موظف صغير جدا تابع للحكومة الانجليزية التى تعينه وتعزله فى أقل من لمح البصر ·

وتقوم فى نيو دلهى دار للبرلمان الهندى ·· ولن تجد فى دول العالم الكبرى أو الصغرى ، شيئا يفوق هذا البناء للبرلمان الهندى سواء فى ضخامته ، أو فى روعته ، أو فى اتساعه ، فهو بناء دائرى محاطا بالاعمدة الشامخة احاطة كاملة ، بحيث يقف الانسان مأخوذا بهذا الخضم من « الاعمدة » وهذا الاتساق الدائرى العجيب · ومع ذلك فقد كان هذا البرلمان حتى الامس القريب أشبه ما يكون بمنشئات شركات السينما ، عندما تعد بناء مدينة روما أو مدينة أثينا لتصوير بعض المناظر الخارجية ، وللتأثير على المتفرجين ، لم يكن هذا البناء

سوى منظرا ، سوى وهما وخداعا للشعب الهندى وللعالم أجمع ، ان الهند يحكمها برلمان ، والحقيقة أن دخول الهند فى الحرب العالمية الثانية ، لم يكلف الحاكم العام الا بضع سطور يكتبها ويوقع عليها ، ليزج بأربعمائة مليون من البشر فى أتون الحرب، وليضع كل أقدار الهند فى خدمات المجهود الحربى الانجليزى ، وعندما حاول حزب المؤتمر أن يعترض على ذلك ، أغلق البرلمان ، وأغلقت برلمانات الولايات الهندية المختلفة ، وحكمت الهند حكما بوليسيا ، لا يحتاج لغير ضباط وعساكر البوليس ، بعد أن زج بكل أعضاء المؤتمر فى السجون وعلى رأسهم البانديت نهرو .

هذه هى نيو دلهى ، كانت وقفا على الحكام الانجليز والمهراجات الذين بنى كل واحد منهم قصرا ، يحيط بقصر الحاكم ، فلا فنادق بها ، ولم يكن يتصور أن ينشأ بها فنادق ، لان ذلك كله يؤذى الارستقراطية الانجليزية ، فالفنادق القليلة فى دلهى ، كانت فى دلهى القديمة ، وبها فندقان أو ثلاثة من الطراز الاول ، وقد كانت كافية لنزول هذا العدد من السياح الانجليز الذين كانوا يفدون الى الهند ، وليس لهم أقارب من السادة الموظفين والحاكمين لينزلوا معهم فى قصورهم. وفجأة تحررت الهند وأصبحت دلهى عاصمة هذه القارة الاسيوية حقا وصدقا أصبحت دلهى فى غمضة عين عاصمة بكل ما تحمله كلمة عاصمة من خطر فى حياة أى شعب من الشعوب .. فالبرلمان بها هو برلمان صحيح وهو مصدر الحكم والسلطان ، والحكومة بها هى مصدرا لتنفيذ الادارة ، وعلى عاتق هذا البرلمان وهذه الحكومة ، تقع مسئولية حكم هذه المئات من الملايين حكما عصريا بكل ما يستتبعه هذا الحكم من تبعات نحو المحكومين .. وجاءت الدنيا كلها لتتصل بهذه الحكومة الجديدة ، وتتعامل مع هذه الحكومة الجديدة ، وتتعاقد مع هذه الحكومة الجديدة أو تتعاهد معها فى السياسة والتجارة، وفى كل فروع النشاط فى الحياة ، وكان كل ذلك جديدا على دلهى ... جاء الامريكان بخيلهم ورجلهم ، وخبرائهم ولجانهم ونقطتهم الرابعة والعاشرة ، لغزو هذا العالم الجديد الذى ولد فجأة كالعملاق الجبار ،

وحكومة الهند التي تريد أن تزاول استقلالها وأن تظهر للدنيا مـدى هذا الاستقلال ـ شرعت تعقد فى كل يوم مؤتمرا لهذا الغرض أو ذاك وقبل ذلك كله ، زحفت جموع الهنود نفسها الى عاصمة البـلاد على صورة مهاجرين من الباكستان أو التماسا للعمل ، وانجـــازا للمصالح ، واتصالا برجال السلطان وقد حدث ذلك كله فجأة مما سبب أزمة فى المساكن

عظمة دلهى القديمة

وبينما كانت دلهى تكشف لى عن حاضرها بمجرد وقـــوف القطار فقد كانت دلهى الماضى قد قدمت لى مجدها قبـــل أن يقف القطار فى المحطة . فلا يكاد القطار يقترب من دلهى حتى يرى جدران قلعتها الشامخة ، ويقال له على الفور هذه قلعة دلهى الحمراء وهو أول مايزار فى دلهى، ثم يرى الانسان تاج دلهى كلها ممثلا فى صورة المسجد أو « مسجد الجمعة » كما يسمونه والذى يكلل هامة دلهى كما يكلل مسجد محمد على هامة مدينة القاهرة، ولكن شتان مابين موقع المسجدين فمسجد محمد على فى القاهرة قد ارتفع عن القاهرة لانه بنى فوق جبل المقطم على طرف القاهرة الشرقى، بحيث أصبح بعيدا عن متناول الناس . أما المسجد الجامع فى دلهى فهو فى قلب مدينة دلهى ، وهو اذا كان يتوج المدينة فلان فى قلب المدينة صخرة مرتفعة وفوق هذه الصخرة بنى شاه جيهان الجامع الذى لا يستطيع الانسان الا أن يعتبره أروع مسجد فى العالم الاسلامى كله بالنسبة لهذا الموقع الفريد الذى يجعل المدينة بأسرها تحت قدميه من سائر الاتجاهات ومن أى ناحية جئت من المدينة، من الشرق أو من الغرب أو الشمال أو الجنوب تجد أمامك هذه الدرجات الرخامية المترامية الاطراف التى تصعد بك حتى تصل الى القمة .. الى المسجد الكبير .. ان بناء هذا المسجد على هذه الصورة فى هذا المكان هو حديث ناطق عن قوة الحكم الاسلامى فى الهند وعن عظمته وحضارته ولم أتمالك نفسى من أن المس بعض المتاعب التى تقوم بين الهند والباكستان بمجرد رؤية هذا المسجد فى عاصمة الهنـد وهو أعظم ما يراه الانسان بها فان هذا المسجد وأمثاله مما سأشير

اليه ، يخلق عقدة فى نفس المتطرفين من متهوسى الهندوكيين ، اذ يذكرهم دائما بأن الاسلام قد حكم الهند فى يوم من الايام فيجب أن لا يعود لحكمها بأى ثمن من الاثمان

فدلهى القديمة مدينة اسلامية مائة في المائة من حيث آثارها وتاريخها ولم يستطع الانجليز ان يتحرروا من هذا السلطان ولذلك فقد أطلقوا على مؤسساتهم الجديدة فى دلهى أسماء مغولية ... وعندما أنشأ حاكم الهند قصره النادر المثال .. أراد ان ينشىء له حديقة تكون حديث الناس فى العالمين فأنشأ حديقة أقيم فيها الاحتفال بعيد الجمهورية وكان حظى أن اشتركت فى هذا الاحتفال فاحتشد فى هذه الحديقة بضعة ألوف من ممثلى شعوب العالم كلها ، كانوا مذهولين من هذه الحديقة التى أنشأها الانجليز .. ومع ذلك فلم يجد الانجليز ما يعتزون به لاظهار عظمة هذه الحديقة أكثر من أن يطلقوا عليها عبارة « الحديقة المغولية » ولقد أتيح لى أن أرى تخطيط الحدائق المغولية سواء فى قصور دلهى بالقلعة الحمراء أو فى التاج محل بمدينة أجراء فأدركت ان الانجليز قد فشلوا فى محاولة التقليد، وكان أحرى بهم أن يبتعدوا عن نسب حديقتهم الى حدائق المغول فالفارق بين الاثنين كالفارق بين قطعة القماش من نسيج خشن وقطعة من أرق أنواع الحرير مزركشة بخيوط من الذهب والدرر واليواقيت فى ذوق سليم وبساطة وجمال .

من المحال أن أستطيع أن أصور للقارىء تفاصيل هذا الذى بعث فى نفسى هذا الشعور . فلو قلت ان الجدران مكسوة بالذهب لماكان هذا شيئا ففى كل مكان وجد هؤلاء الذين كدسوا الذهب على الجدران لسبب أو لآخر ، ولو تحدثت عن الضخامة فان هذه الابنية لا تصل الى بعض معابدنا فى الاقصر ، ولو تحدثت عن الفن أو عن الذوق أو عن النقوش أو الرسوم كل ذلك لا يغنى عن الحقيقة شيئا .. ان هذا الذى رأيته هو شىء لا يفسر الا بكلمة السحر فانت تتصور نفسك وكأنك انتقلت فجأة الى مكان سحرى، الى مكان خرافى، انتقلت الى هذا الذى تحدثنا عنه الحواديت والقصص وتترامى الى راسك كل

الالفاظ التي طالما امتلأ بها الادب العربي كالعود والصندل والند ، والزبرجد والاستبراق والسندس والعسجد واليواقيت والدر والاقحوان والتيلوفر، كل هذه الكلمات وعشرات ومئات منها تتداعى الى رأسك فمن هنا ولدت هذه الألفاظ لتعبر عن هذه المسميات لتصور هذا الجو المعبق بالجمال والعظمة والفن والغنى والثروة التي لا حد لها ٠

التاج محل

قيل لى وقد بهرنى ذلك كله ، وأين كل هذا الذى رأيته مما تراه فى « أجرا » عندما تزور مقبرة « التاج محل » وتزورها فى ضوء القمر ٠ ومنذ طفولتى المبكرة وأنا أسمع عن التاج محل ، وشاهدت أفلاما فى السينما تدور حول التاج محل، أطلقوا عليها القبر الهندى، ولا تذكر الهند الا وتذكر معها التاج محل ٠٠ والآن وقد أصبحت فى دلهى فقد أصبحت الصيحة لزيارة التاج محل تشبه أن تكون دويا كالرعد ٠٠ ولم يكن هناك مايسعدنى أكثر من أن الهنود أنفسهم هم الذين يدلونك على التاج محل ٠ وهم الذين يدلونك على زيارة القلعة ٠٠ ان الهنود يشعرون ان هذه أمجادهم فهم الذين بنوا وهم الذين أقاموا بجهودهم وبأموالهم وبفنانيهم وبنظام حكمهم هذه الروائع ، فهم يعتزون بها هنودهم قبل مسلميهم من غير شك ٠

ولم يكن باستطاعتى أن أقاوم هذا النداء فسافرت الى أجرا وجاءت اللحظة التى وجدت نفسى فيها أمام « التاج محل » وجها لوجه ٠

وتعلق بصرى فى الفضاء نحو هذه القبة وهذه المآذن الاربعة التى تحيط بها ، ومرة أخرى أحسست بالسحر وأحسست بنفسى كالمأخوذ٠

وعندما انتهيت من اجتياز الحديقة المغولية التى تفرقنا عن المكان ٠٠ ورحت أحدق فى أجزاء هذا البناء ثم دلفت الى داخله وطفت فى أرجائه ورأيت نفسى مضطرا ان أقول للدليل اصمت فلست أريد أن أسمع كلاما فقد كان صدور أى صوت يفسد هذا السحر ويوقظ من هذا الحلم ٠٠ كان الدليل يقول لقد صنع شاه جيهان هذا الحاجز الدائرى حول القبر من الذهب الخالص فلما جاء ابنه من بعده طمع فى

هذا الذهب فأخـذه وقرر أن يبنى بدلا منه هـذا الحاجـز من المرمر فلما فرغ من انشائه كانت تكاليفه أضعاف تكاليف الحاجـز الذهبى ولم يكن الدليل فى حاجة لان يقول ذلك لان هذا الفن وهـذا الصنع أغلى من الذهب أضعافا مضاعفة ٠٠ وطالت وقفتى ٠٠ فقال الدليل تعال أريك باقى المكان ٠٠ قلت له دعنى، لا أستطيع أن أبرح هذا المكان وبعد قليل وجدتنى أغمغم ما هذا ٠٠ أهذه موسيقى؟ أهو حلم أم علم؟ والعجيب ان هذا الشعور الذى اختلج فى نفسى وأنا أزور التاج محل هو بعينه شعور كل الذين زاروا المكان من السياح الاوروبيين وعلمائهم ٠٠ فقد حدثنى الاستاذ اسماعيل كامل سفيرنا فى الهند ان الانجليـز يطلقون على التاج محل فى كتبهم « الحلم الرخامى » ـ والموسيقى المتجمدة» وأشهد ان ليس هناك مايصور التاج محل سوى أمثال هذه العبارات ٠٠ فأنت تخال نفسك فى حلم ٠٠ حلم مصنوع من الرخام. أو انك تستمع الى موسيقى متجمدة ٠٠ موسيقى للعين والروح معا ٠٠ وقد تجد التاج محل صورا ولكنها لا تعطيك فكرة أبدا عن هذا الذى حدثتك عنه ٠٠٠ فان الصورة لن تستطيع أن تعطيك فكرة عن كيف يسطع المرمر تحت ضوء الشمس وضوء القمر، ولن تعطيك فكرة عن النقوش الساحرة التى تراها فى كل مكان، صور الزهور وعقود الورد ولكن هذه الورود والرياحين لم تنقش بالالوان أو بالزيت أو بالذهب أو الفضة ٠٠ ولكنها نقشت بالاحجار الكريمة المختلفة الالوان حتى ان الزهرة الواحدة تؤلف من مائة حجر كريم تصب فى داخل المرمر فلا يتمالك الانسان نفسه من الذهول لاستطاعة الانسان أن يفعل ذلك لو ان الزهور قد رسمت بالالوان أو بالاحرى بالماء أو الزيت لما قل ذهول الانسان أمام دقة الفنان الذى جعل أوراقها تبدو شفـافة وسيقانها خضراء ولم ينس أن يرسم أدق خلجات الزهرة وأجزائها ولكن الدليل لا يلبث أن يقول لك ان هذه كلها أحجار كريمة مختلفة الالوان وقد صاغ منها الفنان هذه النقوش ثم يمسك بيدك ويمر بها فوق النقوش حتى تلمس بنفسك انها ناعمة الملمس كلها ليس فيهـا نتوء باعتبارها تتألف من أجزاء مختلفة ثم يطلب منك ان تنظر عن

قرب فلن تجد أي فارق ولو مثل الشعرة يشعرك ان هذه أجزاء مختلفة وانها قد ثبتت فى الرخام وطعم بها على هذه الصورة، مستحيل أن تبلغ الدقة الى هذا الحد ..

وتتلخص قصـــة بناء التاج محـل فى أن الامبراطـور شـاه جيهان أراد أن يفى لزوجته المحبوبة بوعده الذى قطعه لها وهى على فراش الموت ... فقد كان شاه جيهان يحب زوجته « ممتاز محل » لدرجة العبادة لما كانت عليه من جمال روحى ومادى، ولـكن الوفاة أدركتها فى عمر مبكر فطلبت من زوجها أن يقسم لها أن يبنى لها أعظم قبر فى العالم وان لا يتزوج بعدها أبدا .. وقد بر شاه جيهان بقسمه فبنى لها أعظم مقبرة فى العالم طرا بلا مراء وأحضر لها الفنانين من كافـة أنحاء العالم فى أيامه ولذلك فهى ذروة الفن المعمارى فى القرن السادس عشر بلا جدال .. فقد احتشد لبنائها والعمل فيها صناع وفنانون من الهنود والصين وايران ومن البندقية ومن فرنسا ومن القسطنطينية .

ومن مفارقات القدر العجيبة انه لم يكد يفرغ من بنائه حتى قبض عليه ابنه أورانجزب وخلفه على الملك ونصب نفسه بدلا منه .. وحبسه فى القلعة، وكل الذى سمح له به، أن يسجنه فى قسم من القلعة بحيث يستطيع أن يرى عن بعد قبر زوجته المحبوبة .

وأحسب ان الســاعة قد حـانت لنقـدم للقــراء فكرة عن الحكم الاسلامى فى الهند بصفة عامة، والمغولى بصفة خاصة، والذى يصفه البانـديت نهـرو وسـائر أعلام الهنود المعاصرين انـه التقاء سعيد بين الحضارة الهندية والحضارة الاسلامية .

الفصل الثامن
الحكم الاسلامى فى الهند

تاريخ الهند يرجع الى أغوار بعيدة فى الزمن ولقد اكتشفت حديثا فى الباكستان آثار تدل على وجود حضارة كاملة فى خلال ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد – وليس يتسع المجال الآن للتحدث عن تاريخ الهند القديم وعن نشأة الهنود أنفسهم ، وسوف أتحدث عن ذلك فى موضعه فى زيارتى لكراتشى عاصمة الباكستان . فلا جدال أن هذا القسم ونعنى به شمال الهند وشمالها الغربى بصفة خاصة هو أقدم أجزاء الهند مدنية وعمرانا ، وسائر الغزوات التى تعرضت لها الهند فى تاريخها القديم – ابتداء من الغزوات الآرية حتى غزوة الاسكندر المقدونى وغزوات المسلمين الاوائل كلها جاءت من هذا القسم من الهند . وحسبنا الآن أن تقصر تاريخ الهند على مايتصل بمدينة دلهى والتى كانت عاصمة للحكم الاسلامى أكثر من مرة ولكنها كانت فى كل مرة تشيد فى مكان جديد

ويمكن أن يعتبر أول بدء لاتصال المسلمين بالهند، حدث فى القرن الاسلامى الاول حيث غطت الفتوح الاسلامية بلاد الفرس وما يحيط بها ، ولذلك فقد توغلت خيالة المسلمين المقاتلين فى أراضى الهند فى أوائل عهد الدولة الاموية ، أى فى خلال أعوام ٦٦٢ ، ٦٦٤ ميلادية فاقتحموا بلاد الهند ولكنهم لم يلبثوا أن ارتدوا عنها ، وفى عهد الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك أى فى سنة ٧٦١ كلف قائده محمد بن قاسم بغزو السند واحتلالها فقوبل محمد ابن

قاسم بحرب ضروس ولكنه استطاع أن ينتصر فى النهاية وان يقيــم حكم الدولة الاسلامية فى ربوع السند خلال مائة عام ولكنه لم يكن حكما مستقرا ولذلك فقد تلاشى فى سنة ٨٢٨ .

ولكن محمد بن غزنى الفارسى عاد لمحاولة فتح الهند فى سنة ٩٩٧ فجرد عليها سبعة عشر كتيبة وزعها لتغير على أنحاء الهند المختلفة ولكن مهمتها الاساسية كانت تخريب المعابد ونهب الاسلاب التى تصل الى أيديها ولذلك فقد نهبت أموال الهياكل كلها وعلى رأسها أعظم هياكل الهند فى ذلك الوقت وهو هيكل « شيفا » ولم تلبث أسرة غزنى فى فارس أن سقطت وحلت محلها أسرة محمد جور فاعتزم ان يسيطر على الهند، وبعد سلسلة من المعارك التى هزم فى أولها وانتصر فى آخرها استــولى على ولاية بيهار فى سنة ١١٩٩ وعلى البنغال فى سنة ١٢٠٣ ويعتبر ذلك بالاضافة الى ولاية السند بمثابة سيطرة كاملة على شمال الهند وبدأ الحكم الاسلامى يستقر فى هذا الجزء من العالم محدثــا كل آثاره وثمراته الطيبة وتقف اليوم مئذنة قطب أو منارة قطب كما يسمونها والتى تعتبر أعلى منارة فى العالم ومن أشهرها على الاطلاق شاهدة على روعة هذه الحضارة الاسلامية والتى لم يسبق لها مثيل وليست منارة قطب سوى جزء من مسجد أطلق عليه اسم قوة الاسلام واذا كانت منارة هذا المسجد تصعد شامخة الى ارتفاع ٢٣٤ قدم فان باستطاعتك أن تصور لنفسك مبلغ عظمة هذا المسجد الذى بدأه قطب الدين أيبك فى عام ١١٩١ وقد أصبح هذا المسجد خرائب فى الوقت الحاضر

لقد هدم سبعة وعشرون معبدا هنديا ليقدموا الاعمدة والمواد اللازمة لبناء هذا المسجد الذى يجب أن يكون جديرا بالفاتحين وهكذا تــم الازدواج الذى لا مناص منه بين أديان الهند فهذه الاعمدة التى يقوم عليها مسجد « قوة الاسلام » تحمل صور الاساطير الهندية والالهية وقد وصف قطب الدين منشىء هذه المنارة وهذا المسجد على منارتــه بالعبارات الآتية «أمير الامراء والقائدالعام، قائد الدولة قطب الدين» وقد حكمت أسر قطب الدين وخلفتها أسرة علاء الدين ويمكن تسمية

هذا العهد الذى يبدأ من ١١٩٠ حتى ١٣٢٠ بالعهد التركى المتقدم وتؤلف آثاره مدينة قائمة بذاتها وهى احدى مدن دلهى السبعة ثم تلى ذلك مائة عام من الاتراك الذى يطلق عليهم اسم « طقلق » ومرة أخرى تتجمع أثارهم ومساجدهم وقصورهم فى مدينة أخرى من مدن دلهى السبعة، وتعتبر آثار فيروز شاه من أروع مخلفات الحكم الاسلامى فى الهندبعدآثار شاهجيهان ثم جاءحكم يعرف بحكم ملوك اللودى والاشراف سنة ١٤١٤ – ١٥٢٦ وتقوم مساجدهم وقصورهم فى مجموعة مستقلة تؤلف احدى مدن دلهى القديمة وغنى عن البيان ان نظام الحكم خلال هذه الظروف كان هو نظام الحكم فى سائر أنحاء العالمين وهو الحكم الاقطاعى، حيث يستقل كل ملك وأمير بما تحت يده ما دام قادرا على الاحتفـاظ به بقـوة السلاح الى أن جاء حكم المغول الى لهند فى القرن السادس عشر وهنا فقط وصل الحكم الاسلامى والحضـارة الاسلامية فى الهند الى الذروة .

وليس هناك ما هو أعجب من اقتران اسم المغول بالاسلام والحضارة الاسلامية وانها وصلت على أيديهم الى الذروة ، ذلك أن الاسلام لم يلق من المصائب والمحن مثل الذى لاقاه على يد المغول أو بالاحرى «التتار»

هـؤلاء المغـول الذين أفـزعوا الدنيـا كلهـا تحت قيادة جنكيزخان فى سنة ١٢١٤ والذين لقيت بغداد مصرعها على يد أحد خلفائه (هولاكو) فى منتصف القرن الثالث عشر(١) استقر بهم النوى فى القرن الرابع عشر وتحولوا من شعب همجى بربرى الى شعب متحضر مستقر، فاعتنق الشرقيون منهم الديانة البوذية ولم يلبثوا ان ذابوا فى الصين وكسرت شوكتهم أما قسمهم الغربى والذى كان يقيم فى التركستان فقد اعتنق الاسلام وسرعان ما تحولت عاصمة بلادهم سمرقند الى احدى حواضر العالم الاسلامى التى تفيض بالعلم والمدنية وبزغ نجم تيمور لنك الذى أطلق على نفسه اسم الخان الاعظم فى سنة

---

(١) كانت مصر هى الدولة الوحيدة التى هزمت جيوش هولاكو فى فلسطين عام ١٢٦٠ م . فنجت مصر من الخراب والتدمير بل وأوقفت الموجة المغولية كلها عن أن تدمر العالم

١٣٦٩ وحكم البلاد من دلهى فى الهند حتى دمشق فى سوريا ولكن هذه الدولة انفرط عقدها بعد موته كما كان الشأن دائما فى هذه العصور ٠

ويبدأ حكم المغول فى الهند بواحد من سلالة تيمور لنك، هو «بابر» والذى ألف لنفسه جيشا زوده بالمدافع فاكتسح فى طريقه سهول الهند الشمالية،وفى سنة ١٥٠٥ م بدأ الحكم الاسلامى المغولى فى الهند على يد « بابر » سليل تيمور لنك والذى لم ينته من الناحية الرسمية الا بتتويج الملكة فيكتوريا امبراطورة على الهند فى منتصف القرن التاسع‌عشر، ولكن ملوكهم العظام ينتهون بنهاية أورانجزب أى فى سنة ١٧٠٧ » ٠ فقد كان الامبراطور المغولى بعد ذلك ليس سوى شبحا من الاشباح وذكرى*من ذكريات الماضى

ويعتبر جلال الدين أكبر والذى حكم الهند خمسين سنة كاملة هو أعظم من عرفتهم الهند فى كل تاريخها من الملوك ٠ ففى عهده وصلت الهند الى وحدتها الكاملة على ما ذكرنا من قبل وكانت مدينة«أجرا»هى عاصمة البلاد فى أيامه ويعتبر عهد شاه جيهان هو ذروة ما وصل اليه العهد المغولى من رقى فى الفنون والحضارة وهو مبدع مدينة دلهى القديمة التى لا تزال قائمة الى الوقت الحاضر بكل ما تضمه بين جوانجها من آثار خالدات، ويعتبر أورانجزب هو آخر أباطرة المغول الكبار وقد حكم مثل جده « أكبر » خمسين سنة ولكنه كان حكما ضعيفا وقام كما ذكرنا من قبل بعمل مضاد لهذا الذى قام به أكبر فبينما عمل أكبر على توحيد الهند كان حكم أورانجزب هو الذى أدى الى فرط عقد هذه الوحدة فقد بدأت بعض الولايات فى أيامه تثور وتستقل وذلك لسياسة ، التعصب التى جرى عليها ؛

ولقد حمل المسلمون معهم الى الهند العقيدة الاسلامية بكل قوتها وبساطتها ونصاعتها ، فدان بها مائة مليون من الهنود ٠ واذاكانت الباكستان قد استقلت بستين مليونا منهم فانه لا يزال فى الهند نفسها أربعون مليونا من الهنود المسلمون أى ما يقرب من مجموع عدد العرب‌المسلمين٠ على‌أن أثر المسلمين‌الاكبر فى‌الهندكان فى‌جلبهم معهم

حضارة الفرس العالية فتلاقت الحضارات الهندية والفارسية والاسلامية فكان من ثمرة هذا الامتزاج هذا التتابع الرائع الذى هو حكم المغول فى الهند والذى سيبقى الى الابد مصدر الوحى والالهام وحافزا للهند لبلوغ ارقى مراتب الحضارة والكمال لتصل حاضرها بماضيها .

خاتمة هذا المستقبل

على أنه لا الهند الماضية ولا الهند الاسلامية ولا الهند المناضلة ضد الانجليز ولا الديانة الهندية، ليس شيئا من ذلك هو الذى أثر فى نفسى قدر تأثير الهند المقبلة والتى تصنع الآن فى هذه السنوات .

ان أمامى الآن وعلى مكتبى كل هذه الوثائق والخطط التى وضعت لبناء الهند فى السنوات الخمس المقبلة وانه ليؤسفنى أشد الاسف ان لا يتسع هذا الجزء من الكتاب لكى أبسط على مواطنى تفصيل هذا البرنامج ، ماتم منه وماهو فى طريقه الى التمام فلقد دعوت وسأظل أدعو الى أنه لا أمل لمصر فى النهوض بمستواها وحل جميع قضاياها الكبرى الا بوضع برنامج ضخم وخطة مرسومة لاعادة بناء مصر ولكن الهند قد وضعت برنامجها وخطتها للخمس سنوات المقبلة على أساس تشجيع رأس المال الخاص بالتعاون مع الدولة فى تحقيق خطتها، فخطة الهند الاقتصادية يمكن ان تكون نبراسا لمصر كما ان ايمانها بالديمقراطية يمكن أن يكون كذلك مثالا يحتذى .

ان الهند اليوم تعتبر قلعة من قلاع الديمقراطية ، وقبيل رحلتى اليها كانت قد فرغت من انتخاباتها حيث ألقى مائة وستون مليونا من الهنود أصواتهم فى صناديق الانتخاب لاختيار ممثلى الشعب وهو حدث لم يسبق له مثيل فى العالم ولن يكون له مثيل الا فى الهند ...

وهكذا بينما تتداعى حصون الديمقراطية فى أوربا وفى أمريكا نفسها تقوم الهند كقلعة جديدة من قلاع الديمقراطية مؤمنة بحقوق الانسان وحرية الفكر والعقيدة وتحرر الشعوب من ربقة الاستعمار والاستعباد . ولذلك فقد وقفت الهند وتقف الى جوار كل الشعوب

المناضلة عن حريتها ولن تنسى أندونيسيا ان الهند وقفت الى جوارها ابان كفاحها للحصول على استقلالها وأعلنت عن استعدادها للحرب من أجل استقلال أندونيسيا

وعندى انه لو حلت قضية كشمير وصفى هذا الخلاف بين الهند والباكستان لما كان هناك أى تحفظ فى أى ركن من أركان العالم العربى أو الاسلامى أو الشرقى فى مبايعة الهند على زعامة العالم الحر .

ولست أحسب أن هناك أروع ما أختم به هذه الصفحات من أن أذكر هذه القصة التى قصها على صديق هندى ليشعر كل هؤلاء الذين اكتووا بنار الاستعمار الانجليزى وليدخل الامل فى كل نفس أوشك أن يرين عليها اليأس من ان ساعة الانجليز قد دنت .

قال لى الهندى ان صديقا له ذهب الى لندن فى الصيف الماضى فنزل فى أحد فنادقها الكبيرة ، وفى أحد الايام طلب سيارة أجرة لتنقله من الفندق الى مكان آخر فاذا به يفاجأ برؤية سائق التاكسى الذى كان كولونيلا فى الجيش الهندى حيث كان يعمل تحت امرته هذا الهندى كضابط صغير وعندما وصل الى حيث كان يريد الذهاب أعطى لسائق التاكسى أجرته ونقده ما يساوى بضعة مليمات فقال له السائق : « شكرا لك ياسيدى » فقال له الهندى هل تذكرنى ؟ فقال السائق « عفوا » فقال له الهندى أنا فلان الذى كان يعمل تحت امرتك فى الجيش الهندى . فارتسمت على شفتى السائق ابتسامة صفراء وأسرع الى ادارة سيارته قائلا للهندى « تلك أيام مضت » .. ما أصدق هذه الكلمة ... « تلك أيام مضت .. »

أجل « لقد مضت أيام الامبراطورية الانجليزية فى اليوم الذى ولدت فيه الجمهورية الهندية .

